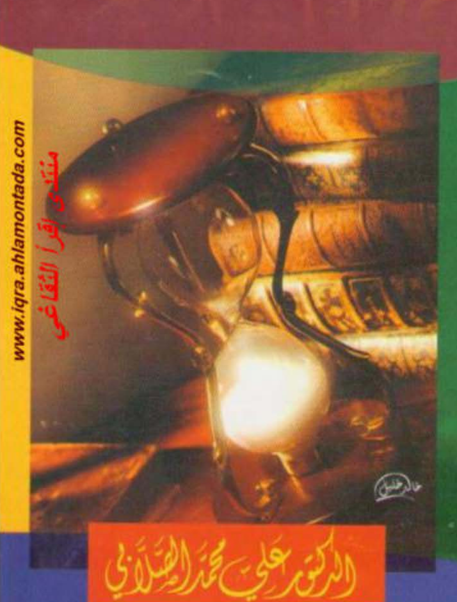
العالم الكبير والمربي الشهير الشيخ

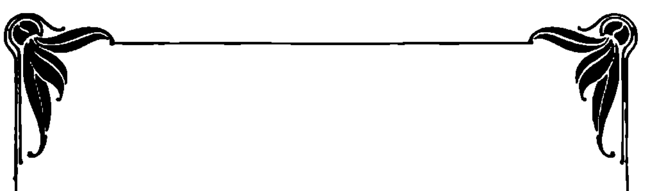
عبد القادر الجيلاني





الدكتور علي محمد الصلابي

مؤسسة اقرأ



العالم الكبير

والمـــربي الشـــهير

الشيخ عبد القادر الجيلاني

الدكتور

علي محمد محمد الصَّلاَّبي







الطبعة الأولى
١٤٢٨هـ - ٢٠٠٧م

رقم الإيداع: ٢٣٤١٤/٢٠٠٦م
الترقيم الدولي:
977-441-001-7

مركز السلام للتجهيز الفني
عبد الحميد عمر
٠١٠٦٩٦٢٦٤٧

مؤسسة اقرأ

للنشر والتوزيع والترجمة

١٠ ش أحمد عمارة - بجوار حديقة الفسطاط

القاهرة ت: ٥٣٢٦٦١٠ محمول:٠١٠٢٣٢٧٣٠٢ - ٠١٠١١٧٥٤٤٧

www.iqraakotob.com
E-mail:info@iqraakotob.com

الإهـــــداء

إلى كـل مسـلم حـريص علـى إعزاز دين الله ونصرته، أهـدي هـذا الكتـاب سـائلاً المولى، عـز وجـل، بأسمائه الحسنى وصـفاته العُلـى أن يكون خالصاً لوجهه الكريم.

قال تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا وَلاَ يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾

[الكهف: ١١٠].

تنويـــه

هذا الكتاب جزء من كتاب «عصر الدولـــة الزنكيـــة ونجـــاح المشـــروع الإسـلامي بقيـادة نـور الـدين محمـود «الشـــهيد» في مقاومـــة التغلغـــل الباطني والغزو الصليبي»

رأيت نشره منفـردًا حتـى تعـم بـه الفائدة.

علي محمد الصلابي

المقدمـــة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيدًا ۞ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

يارب لك الحمد كما ينبغي لجلال وجهك وعظيم سلطانك، ولك الحمد حتى ترضى، ولك الحمد إذا رضيت ولك الحمد بعد الرضا، فلله تعالى الحمد كما ينبغي لجلاله وله الثناء كما يليق بكماله، وله المجد كما تستدعيه عظمته وكبرياؤه.

أما بعد:

قد لاحظت في دراستي لفترة الحروب الصليبية أن انتصارات نور الدين وصلاح الدين ساهمت فيها عوامل متعددة؛ منها على مستوى الخلافة نفسها ومنها على المستوى الشعبي ومنها على مستوى الوزارة، فقد أخذت مؤسسة الخلافة تسترجع صلاحياتها وتقوى على ما كانت عليه في العهد السلجوقي الأول، وكذلك الوزارة العباسية في عهد يحيى بن هبيرة الوزير الصالح والعالم الرباني ،وكان الشيخ عبد القادر الجيلاني من زعماء الدعوة الشعبية والإصلاح العام في عاصمة الخلافة العباسية، فقد كانت عامّة الجماهير متعطشة إلى شخصية روحية رفيعة، تكون على تواصل بالشعب وطبقاته وجماهيره تؤثر في المجتمع بدعوتها ومواعظها وتزكيتها، وتوقظ في النفوس الإيمان

وتحيي فقه القدوم على الله وتحرك في القلوب الحب لله والحنين إليه، وتحث على الطموح وعُلو الهمة وبذل الجهد في الحصول على علم الله الصحيح وعبادته ونيل رضوانه والمسابقة إلى سبيله، وتدعو إلى التوحيد الكامل والدين الخالص. ولقد تحققت هذه الأهداف في شخص الشيخ عبد القادر الجيلاني واستطاع أن يؤسس مدرسة أسهمت مع الزنكيين في تحمل المسؤولية ومواجهة التحديات العقائدية والفكرية والاقتصادية، والاجتماعية وأسهمت في إعداد جيل المواجهة للخطر الصليبي في البلاد الشامية. وقد استفاد عبد القادر الجيلاني من جهود من سبقوه وتعاليمهم وخصوصاً الإمام الغزالي الذي قام بدور عظيم في تاريخ الإصلاح والتجديد وحوّل تلك التعاليم إلى مناهج مبسطة يفهمها العامّة وطلاب العلم والعلماء، فقد وضع الشيخ عبد القادر منهجاً متكاملاً يستهدف إعداد الطلبة والمريدين روحياً واجتماعياً، ويؤهلهم لحمل رسالة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وتوفر لهذا المنهج فرص التطبيق العملي في الرباط المعروف باسم الشيخ عبد القادر حيث كانت تجري التطبيقات التربوية والدروس والممارسات الصوفية ويقيم الطلبة والمريدون، فالتحليل الدقيق للنظام التربوي الذي طبقه الشيخ عبد القادر الجيلاني يكشف عن تأثير كبير بالمنهاج الذي اقترحه الغزالي [1].

وقد تحدثت في هذا الكتاب - الذي أسميته «العالم الكبير والمربي الشهير الشيخ عبد القادر الجيلاني» - عن اسمه ونسبه ورحلاته في طلب العلم وشيخوخه، ثم تحدثت عن منهجه في توضيح العقيدة عن طريق عرضه للعقيدة بأسلوب بيان بليغ سهل العبارة، وحرصه على عدم الخروج عن مدلول الآيات القرآنية والأحاديث النبوية، وعن تذكيره بأن عقيدته هي

(١) هكذا ظهر جيل صلاح الدين نقلاً عن الجهاد والتجديد ص ٣٣٩.

عقيدة السلف ورفضه لتأويل المتكلمين، وإمساكه عما لم يرد ذكره في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ وإعراضه عن علم الكلام.

كما بينت آراء الشيخ عبد القادر الجيلاني الاعتقادية حول الإيمان وحكم مرتكب الكبيرة، وتوحيد الربوبية والألوهية، وشروط قبول العبادة، والدعاء والتوكل والخوف والرجاء، وما ينقض التوحيد، كما تحدثت عن عقيدته في الأسماء والصفات وعقيدته في القرآن الكريم ورؤية الله عز وجل، والقضاء والقدر وعذاب القبر، وسؤال منكر ونكير، والشفاعة والحوض والصراط والميزان.

وقد ذكرت موقف الشيخ عبد القادر الجيلاني من البدعة وأهمية الاعتصام بالكتاب والسنة وذم البدع والتحذير منها، وطاعة ولي الأمر.

وقد فصلت الحديث حول مفهوم التصوف عند الشيخ عبد القادر الجيلاني من حيث تعريف التصوف عنده، والعوامل التي أدت إلى تصوفه وموقفه من العلم والعمل، ثم تحدثت عن آداب الشيخ والمريد عند الشيخ عبد القادر الجيلاني.

ثم ذكرت كيفية تأسيس الطريقة القادرية وأهم مميزاتها من حيث التأكيد على التمسك بالكتاب والسنة وخلو طريقته من الأفكار والفلسفات التي كانت سائدة في عصره، وتركيزه على الاهتمام بالجوانب العملية، ووضعة لمجموعة من الآداب والتعاليم وتأكيده على وجوب تعظيم أوامر الله سبحانه وامتثالها.

وتحدثت عن الخطوط العريضة لدعوة الشيخ عبد القادر الجيلاني الإصلاحية واعتمادها على التعليم المنظم والتربية الروحية المنظمة من خلال الإعداد الروحي والديني والثقافي والاجتماعي، كما تحدثت عن الوعظ

وموضوعاته وانتقاد الشيخ عبد القادر للعلماء والحكام وانتقاده للأخلاق الاجتماعية السلبية في عهده، ودعوته لإنصاف الفقراء والعامة والتصدي للتطرف الشيعي الباطني وللتيارات الفكريه المنحرفة، وإصلاح التصوف عن طريق تنقيته مما طرأ عليه، والحملة على المتطرفين من الصوفية، ومحاولة التنسيق بين الفرق الصوفية وإيجاد التآلف بينها، والنهوض بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والتعاون بين مدارس الإصلاح والدولة الزنكية من خلال الإسهام في إعداد أبناء النازحين من المناطق الصليبية، والمشاركة في الجيش والجهاد العسكري والمشاركة في ميادين السياسة، ثم تحدثت أخيرًا عن صفاته ووفاته.

وتعتبر تعاليم الشيخ عبد القادر ومدرسته ذات أثر ملموس أسهم في نهوض الأمة في عهد الزنكيين والأيوبيين وكان الشيخ عبد القادر على أصول منهج أهل السنة في الأصول والفروع وكانت له جهود مشكورة للتصدي للمذهب الشيعي الرافضي، وإعداد الأمة للجهاد ضد الصليبيين الغزاة، وقد أثنى ابن تيمية على الشيخ عبد القادر واعتبره من أئمة الصوفية والمشايخ المشهورين الذين كانوا على الصراط المستقيم وأنه: من أعظم الناس لزوماً للأمر والنهي وشهد له بأنه من الشيوخ الكبار [1]، ثم شهد له أنه من أعظم مشايخ زمانه في الأمر بالتمسك بالشريعة الغراء بالتزام الشرع والأمر والنهي وتقديمه على الذوق، ومن أعظم المشايخ أمراً بترك الهوى والإرادة النفسية [2].

هذا وقد انتهيت من هذا الكتاب يوم الأربعاء الساعة الثانية عشرة، وثماني دقائق من يوم ٢٠ شعبان ١٤٢٧هـ الموافق ١٣/ ٩/ ٢٠٠٦ والفضل لله من قبل ومن بعد، وأساله سبحانه وتعالى بأسمائه الحسنى وصفاته العُلا أن يجعل عملي لوجهه خالصاً ولعباده نافعاً، ويشرح صدور العباد للانتفاع

(١) فتاوى ابن تيمية (١٠/ ٤٦٣).

(٢) المصدر نفسه (١٠/ ٤٨٨).

به ويبارك فيه بمنه وكرمه وجوده، وأن يثيبني على كل حرف كتبته ويجعله في ميزان حسناتي، وأن يثيب إخواني الذين أعانوني بكل ما يملكون من أجل إتمام هذا الجهد المتواضع، ونرجو من كل مسلم يصله هذا الكتاب أن لا ينسى العبد الفقير إلى عفو ربه ومغفرته ورحمته ورضوانه من دعائه.

﴿رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ﴾ [النمل: ١٩].

وقال تعالى: ﴿مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلاَ مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلاَ مُرْسِلَ لَهُ مِن بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [فاطر: ٢].

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.. سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

الفقير إلى عفو ربه ومغفرته

ورحمته ورضوانه

علي محمد محمد الصَّلاَّبيّ

الإخوة الكرام يسرني أن تصل ملاحظاتكم وانطباعاتكم حول هذا الكتاب وغيره من كتبي من خلال دور النشر، وأطلب من إخواني الدعاء بظهر الغيب بالإخلاص لله رب العالمين، والصواب للوصول للحقائق ومواصلة المسيرة في خدمة تاريخ أمتنا.

Mail: abumohamed2@maktoob.com

* * *

تمهيد

الدعوة الشعبية والإصلاح العام

من الملاحظات المهمة في دراستي لفترة الحروب الصليبية أن انتصارات نور الدين وصلاح الدين ساهمت فيها عوامل متعددة منها على مستوى الخلافة نفسها، ومنها على المستوى الشعبي، فقد أخذت مؤسسة الخلافة تسترجع صلاحياتها وتقوى على ما كانت عليه في العهد السلجوقي الأول، وكذلك مؤسسة الوزارة العباسية خصوصاً في عهد يحيى بن هبيرة، وسيأتي الحديث عن ذلك في محله بإذن الله تعالى.

وفي هذا الكتاب سنوضح بإذن الله تعالى جهود عبد القادر الجيلاني في الدعوة الشعبية والإصلاح العام فقد كانت حركته الشعبية معاصرة لعماد الدين ونور الدين محمود.

وتعتبر حركة عبد القادر الجيلاني من الروافد المهمة في حركة الجهاد والمقاومة التي قادها نور الدين وخصوصاً في القطاع الشعبي العريض،وفي عاصمة الخلافة العباسية بغداد، لقد كانت عامّة الجماهير في حاجة شديدة إلى شخصية روحية رفيعة، تكون على تواصل بالشعب وطبقاته وجماهيره لكي يؤثر في المجتمع بدعوته ومواعظه وتزكيته[1]، وتوقظ في النفوس الإيمان وتثير عقيدة الآخرة، وتحرك في القلوب الحب لله والحنين إليه، وتحث على الطموح وعُلو الهمّة وبذل الجهد في الحصول على علم الله الصحيح وعبادته ونيل رضوانه والمسابقة إلى سبيله وتدعو إلى التوحيد الكامل، والدين الخالص [2]، ولقد وجد هذا المصلح الشعبي في شخص الشيخ عبد القادر الجيلاني الذي ظهر في بغداد في

(١) رجال الفكر والدعوة (١/ ٢٣٥). (٢) المصدر نفسه (١/ ٢٣٧).

آخر القرن الخامس، وتسلّم الزعامة الدينية وعاش نحو قرن فرداً فريداً في الدعوة إلى الله، وأثر في العالم الإسلامي تأثيراً كبيراً[1]، واستطاع أن يؤسس مدرسة أسهمت مع الزنكيين في تحمل المسؤولية ومواجهة التحديات العقائدية والفكرية والاقتصادية والاجتماعية وشاركت في إعداد جيل المواجهة للخطر الصليبي في البلاد الشامية[2]، فقد استفاد عبد القادر الجيلاني من جهود من سبقوه وتعاليمهم وخصوصاً الإمام الغزالي الذي قام بدور عظيم في تاريخ الإصلاح والتجديد - وقد فصلت ذلك في كتابي دولة السلاجقة والمشروع الإسلامي لمقاومة الغزو الصليبي - وكان هو الرجل المطلوب للدفاع عن الإسلام عند هجوم الفلسفة اليونانية وإلحاد الباطنية، وانحراف العلماء[3]، وقد استفاد عبد القادر الجيلاني من جهود وتراث الغزالي وحول تلك التعاليم إلى مناهج مبسطة يفهمها العامّة وطلاب العلم والعلماء، يقول الدكتور ماجد الكيلاني:

والواقع أن التحليل الدقيق للنظام التربوي الذي طبقة عبد القادر الجيلاني يكشف عن تأثر كبير بالمنهاج الذي اقترحه الغزالي، فقد وضع الشيخ عبد القادر منهاجاً متكاملاً يستهدف إعداد الطلبة والمريدين علمياً وروحياً واجتماعياً، ويؤهلهم لحمل رسالة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، كذلك توافر لهذا المنهاج فرص التطبيق العملي في الرباط المعروف باسم الشيخ عبد القادر حيث كانت تجري التطبيقات التربوية والدروس والممارسات الصوفية ويقيم الطلبة المريديون[4]. وتعتبر شخصية الشيخ عبد القادر الجيلاني ومدرسته وتعاليمه ذات أثر ملموس في نهوض الأمة في عهد الزنكيين الأيوبيين، ولذلك بإذن الله تعالى سنسلط الأضواء على شخصيته ومدرسته وتعاليمه.

---

(١) المصدر نفسه (١/ ٢٣٩).
(٢) لا طريق غير الجهاد لتحرير المسجد ص ٣٢٥.
(٣) رجال الفكر والدعوة (١/ ٢٣٥).
(٤) هكذا ظهر جيل صلاح الدين نقلاً عن لا طريق غير الجهاد ص ٣٣٩.

الفصل الأول

اسمه ونسبه ورحلاته في طلب العلم وشيوخه

١- اسمه:

عبد القادر بن أبي صالح موسى جنكي دوست بن أبي عبدالله بن يحيى الزاهد بن محمد بن داود بن موسى بن عبد الله بن موسى الجون بن عبد الله المحض، ويلقب أيضاً بالجل بن الحسن المثنى بن الحسن بن علي بن أبي طالب ﷺ[1]. وبعض الناس ينكر نسبه إلى علي بن أبي طالب [2]، ويبدو أن الصحيح صحة انتسابه إلى أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ﷺ لضعف أدلة الطاعنين وندرتهم وقوة أدلة المثبتين وكثرتهم [3].

٢- كنيته ولقبه:

تكاد تجمع كتب السير والتراجم على أن كنيته أبو محمد ونسبته الجيلاني أو الجيلي [4]. وأما الألقاب التي أطلقت عليه فهي كثيرة توحي بدلالات متعددة وهي تشبه في عصرنا الإجازات العلمية والأوسمة التي تمنح للعلماء والعظماء إقراراً بفضلهم وبيانًا لعلو منزلتهم، فمن الألقاب التي أطلقت عليه لقب الإمام، أطلقه عليه السمعاني فقال: إمام الحنابلة وشيخهم في عصره. نقله عنه ابن رجب [5]. ومنها لقب شيخ الإسلام أطلقه عليه الذهبي [6].

٣- ولادته:

ولد الشيخ عبد القادر في بلدة جيلان وهي بلاد متفرقة وراء طبرستان ويقال لها

(١) سير أعلام النبلاء (٢٠/ ٤٣٩)، الشيخ عبد القادر الجيلاني ص ٢٧.

(٢) الذيل على طبقات الحنابلة لابن رجب (١/ ٢٩٠).

(٣) (٤) (٥) الشيخ عبد القادر الجيلاني، د. سعيد القحطاني ص ٢٨.

(٦) سير اعلام النبلاء (٢٠/ ٤٣٩).

إكيل وكيلان، والنسبة إليها جيلي وجيلاني وكيلاني، وذلك سنة إحدى وسبعين وأربعمائة للهجرة [1]، وقيل: إنه ولد سنة سبعين وأربعمائة هجرية [2].

٤- طلبه للعلم ورحلاته:

رحل الشيخ عبد القادر الجيلاني من بلده ومسقط رأسه جيلان إلى بغداد حيث دخلها سنة ٤٨٨هـ وعمره آنذاك ثماني عشرة سنة، والتقى في بغداد بمجموعة من مشاهير العلماء الذين نهل من مناهلهم واستفاد من معارفهم حتى أصبح عالماً في مختلف العلوم إذ يصفه الذهبي في ترجمته له بأنه: الشيخ الإمام العالم الزاهد العارف القدوة شيخ الإسلام وعلم الأولياء ومحيي الدين [3]، وكما يصفه ابن رجب في ذيل طبقات الحنابلة بأنه: شيخ العصر وقدوة العارفين وسلطان المشايخ صاحب المقامات والكرامات والعلوم والمعارف [4]، وقد أمضى في طلب العلم اثنين وثلاثين سنة درس فيها مختلف علوم الشريعة ثم جلس للتعليم والوعظ سنة ٥٢٠هـ [5]. وكان خلال فترة طلبه للعلم رغم طولها يعاني من ضيق العيش ويكابد مرارة الحرمان إلا أن ذلك لم يفت في عزيمته ولم يعوقه عن المثابرة في طلب العلم [6]، وقد نقل ابن رجب ما يصور لنا تلك المعاناة من كلام الشيخ نفسه حيث يقول: وكنت أقتات الخرنوب [7] الشوك وقمامة البقل وورق الخس من جانب النهر والشط، وبلغت الضائقة في غلاء نزل ببغداد أن بقيت أياماً لم آكل طعاماً بل كنت أتتبع المنبوذات أطعمها يوماً من شدة الجوع لعلي أجد ورق الخس أو البقل، أو غير ذلك، فأتقوت به، فما ذهبت إلى موضع إلا وغيري قد سبقني إليه، وإن وجدت أجد الفقراء

---

(١) سير أعلام النبلاء (٢٠/ ٤٣٩).

(٢) بهجة الأسرار للشطنوفي ص ٨٨.

(٣) سير أعلام النبلاء (٢٠/ ٤٣٩).

(٤) ذيل طبقة الحنابلة لابن رجب (١/ ٢٩٠).

(٥) المصدر نفسه (١/ ٢٩١).

(٦) الشيخ عبد القادر الجيلاني ص ٣٢.

(٧) الخرنوب: شجر بري ذو شوك وذو حمل كالتفاح لكنه بشع.

يتزاحمون عليه فأتركه حياء، فرجعت أمشي وسط البلد لا أدرك منبوذاً إلا وقد سبقت إليه حتى وصلت إلى مسجد ياسين بسوق الرياحين ببغداد وقد أجهدني الضعف وعجزت عن التماسك فدخلت إليه ووقعت في جانب منه وقد كدت أصافح الموت، إذ دخل شاب أعجمي ومعه خبز صاف وشواء وجلس يأكل فكنت أكاد كلما رفع يده باللقمة أن أفتح فمي من شدة الجوع حتى أنكرت ذلك على نفسي فقلت: ما هذا وقلت: ما ههنا إلاّ الله أو ما قضاه عليّ من الموت إذا التفت إليّ العجمي فرآني فقال: بسم الله يا أخي فأبيت فأقسم عليّ فبادرت نفسي فخالفتها فأقسم أيضاً فأجبته فأكلت متقاصراً، فأخذ يسألني: ما شغلك؟ ومن أين أنت؟ وبمن تُعرف؟ فقلت: أنا متفقه من جيلان. فقال: وأنا من جيلان فهل تعرف شاباً جيلانياً يسمى عبد القادر، فقلت: أنا هو فاضطرب وتغير وجهه وقال: والله لقد وصلت إلى بغداد ومعي بقية نفقة لي فسألت عنك فلم يرشدني أحد، ونفدت نفقتي ولي ثلاثة أيام لا أجد ثمن قوتي إلاّ مما كان لك معي وقد حلّت لي الميتة وأخذت من وديعتك هذا الخبز والشواء، فكل طيباً فإنما هو لك وأنا ضيفك الآن بعد أن كنت ضيفي. فقلت له: وما ذاك فقال: أمك وجهت لك معي ثمانية دنانير فاشتريت منها هذا للاضطرار فأنا معتذر إليك، فسكّنُه وطيبت نفسه ودفعت إليه باقي الطعام وشيئاً من الذهب برسم النفقة فقبله وانصرف[1].

٥- شيوخه:

ونتحدث عن بعضهم:

أ- ابو سعيد المبارك بن علي المخرمي:

شيخ الحنابلة تفقه بالقاضي أبي يعلي وبنى مدرسة باب الأزج، درّس بها

---

(١) الذيل على طبقات الحنابلة لابن رجب (١/ ٢٩٨).

بعده تلميذه الشيخ عبد القادر الجيلاني بعد أن طوّرها وأدخل عليها بعض التوسعة والتجديد، وكان نزيهاً عفيفاً، وقد فتحت عليه الدنيا، فبنى داراً وحماماً وبستاناً، مات سنة ٥١٣هـ.

ب- ابو الوفاء علي بن عقيل بن عبد الله البغدادي:

الإمام العلامة البحر شيخ الحنابلة المتكلم صاحب التصانيف، ولد سنة ٤٣١هـ وكان يتوقد ذكاءً وكان بحر معارف وكنز فضائل لم يكن له في زمانه نظير[1]. وقد نقل عنه الذهبي قوله: عصمني الله في شبابي بأنواع من العصمة، وقصر محبتي على العلم وما خلطت لعاباً قط، ولا عاشرت إلاّ أمثالي من طلبة العلم وأنا الآن في عشر الثمانين أجد من الحرص على العلم أشد مما كنت أجده وأنا ابن العشرين، وبلغت لاثنتي عشرة سنة وأنا اليوم لا أرى نقصاً في الخاطر والفكر والحفظ وحدّة النظر بالعين لرؤية الأهلة الخفية إلاّ أن القوة ضعيفة [2]. قال ابن الجوزي: كان ابن عقيل ديناً حافظاً للحدود، توفي له ابنان فظهر منه من الصبر ما يتعجب منه، وكان كريماً ينفق ما يجد وما خلّفَ سوى كتبه وثياب بدنه، توفي سنة ٥١٣هـ [3]

وينقل الذهبي عن أبي المظفر سبط ابن الجوزي قول ابن عقيل: حججت فالتقطت عقد لؤلؤ في خيط أحمر فإذا شيخ أعمى ينشده ويبذل لملتقطه مائة دينار فرددته عليه، فقال: خذ الدنانير فامتنعت وخرجت إلى الشام وزرت القدس وقصدت بغداد فأويت بحلب إلى مسجد وأنا بردان جائع فقدموني فصليت بهم فأطعموني وكان أول رمضان فقالوا: إمامنا توفي فصل بنا هذا الشهر ففعلت فقالوا: لإمامنا بنت فتزوجت بها وأقمت معها سنة وأولدتها ولداً ذكراً فمرضت في نفاسها فتأملتها يوماً فإذا في عنقها العقد بعينه بخيطه الأحمر،

---

(١) سير أعلام النبلاء (١٩/ ٤٢٨).

(٢) الشيخ عبد القادر الجيلاني ص ٣٨.

(٣) سير أعلام النبلاء (١٩/ ٤٤٦).

فقلت لها: لهذا قصة، وحكيت لها، فبكت وقالت: أنت هو والله، لقد كان أبي يبكي ويقول: اللهم ارزق ابني مثل الذي رد العقد عليَّ، وقد استجاب الله منه ثم ماتت فأخذت العقد والميراث وعدت إلى بغداد [1].

ج- حماد بن مسلم الدباس:

كان الشيخ عبدالقادر من تلامذته[2]، وقد أثنى ابن تيمية على الجيلاني وشيخه حماد حيث قال: فأمر الشيخ عبد القادر وشيخه حماد الدباس وغيرهما من المشايخ أهل الاستقامة رضي الله عنهم: بأنه لا يريد السالك مراداً قط وأنه لا يريد مع إرادة الله عز وجل سواها بل يجري فعله فيه فيكون هو مراد الحق[3].

د- ابو محمد جعفر بن احمد البغداي السراج:

الشيخ البارع المحدث المسند بقية المشايخ كتب بخطه الكثير وصنَّف الكتب، كان صدوقاً ألف في فنون شتَّى، وكان ممن يفتخر برؤيته ورواياته لديانته ودرايته، ثقة مأمون عالم صالح، ولد سنة ٤١٧هـ وتوفي سنة ٥٠٠هـ[4].

هـ- ابو عبد الله يحيى بن الإمام ابو علي الحسن بن احمد بن البناء البغدادي الحنبلي:

كان الحافظ عبد الله بن عيسى الأندلسي يثني عليه ويمدحه ويطريه ويصفه بالعلم والفضل وحسن الأخلاق وترك الفضول وعمارة المسجد وملازمته، ولد سنة ٤٥٣هـ وتوفي سنة ٥٣١هـ [5].

هؤلاء من أشهر شيوخه الذين أخذ عنهم وكان لهم الأثر الكبير في حياته[6].

---

(١) سير اعلام النبلاء (١٩/ ٤٤٧).

(٢) المصدر نفسه (١٩/ ٤٤٩).

(٣) فتاوى ابن تيمية (١٠/ ٤٥٥).

(٤) سير أعلام النبلاء (١٩/ ٢٢٨).

(٥) المصدر نفسه (٢٠/ ٦).

(٦) الشيخ عبد القادر الجيلاني للقحطاني ص ٤٣.

٦- مكانته العلمية:

ويكفي في معرفة مكانة الشيخ عبد القادر الجيلاني العلمية ثناء شيخ الإسلام ابن تيمية عليه، فقد شهد ابن تيمية للشيخ عبد القادر بأنه من الشيوخ الكبار[١]. ثم شهد له بأنه من أعظم مشايخ زمانه في الأمر بالتمسك بالشريعة الغراء فيقول: والشيخ عبد القادر ونحوه من أعظم مشايخ زمانهم أمراً بالتزام الشرع والأمر والنهي وتقديمه على الذوق والقدر، من أعظم المشايخ أمراً بترك الهوى والإرادة النفسية [٢].

وقال القاضي أبو عبد الله المقدسي: سمعت شيخنا موفق الدين ابن قدامة يقول: دخلنا بغداد سنة ٥٦١هـ فإذا الشيخ الإمام محيي الدين عبد القادر ممن انتهت إليه الرئاسة بها علماً وعملاً وحالاً وإفتاءً وكان يكفي طالب العلم عن قصده غيره من كثرة ما اجتمع فيه من العلوم والصبر على المشتغلين وسعة الصدر، وكان ملء العين وجمع الله فيه أوصافاً جميلة وأحوالاً عزيزة وما رأيت بعده مثله وكل الصيد في جوف الفراء [٣]. وكان يبذل أوقاتاً كثيرة في سبيل تعليم الناس الذين كانوا يحرصون على حضور دروسه على اختلاف مستوياتهم، يقول ابنه عبد الوهاب: كان والدي -رحمه الله- يتكلم في الأسبوع ثلاث مرات بكرة الجمعة وعشية الثلاثاء وبالرباط بكرة الأحد، وكان يحضره العلماء والفقهاء والمشايخ وغيرهم ومدة كلامه على الناس أربعون سنة أولها ٥٢١هـ وآخرها ٥٦١هـ ومدّة تصدره للتدريس والفتوى بمدرسته ٣٣ سنة أولها ٥٢٨هـ وآخرها ٥٦١هـ وكان يكتب ما يقول في مجلسه أربعمائة محبرة[٤].

---

(١) فتاوي ابن تيمية (١٠/ ٤٦٣).

(٢) المصدر نفسه (١٠/ ٤٨٨).

(٣) الذيل على طبقات الحنابلة لابن رجب (١/ ٢٩٤).

(٤) بهجة الأسرار للشطنوفي ص ٩٥.

وأما ذكاؤه وفطنته وقدرته على حل المعضلات من الحوادث والمسائل فيشهد لذلك ما ذكره ابنه عبد الرزاق بقوله: جاءت فتوى من العجم إلى بغداد فلم يتضح لأحد منهم فيها جواب شافٍ وصورتها: ما تقول السادة العلماء في رجل حلف بالطلاق الثلاث أنه لابد له أن يعبد الله عبادة ينفرد بها دون جميع الناس في وقت تلبسه بها، فما يفعل من العبادات؟ قال: فأتى بها إلى والدي فكتب عليها على الفور: يأتي مكة ويخلى له المطاف ويطوف أسبوعاً - أي سبعاً - وحده وتنحل يمينه. قال: فما بات المستفتي ببغداد[1].

وعندما ترجم له ابن رجب في الذيل على طبقات الحنابلة قال: شيخ العصر وقدوة العارفين وسلطان المشايخ وسيد أهل الطريقة في وقته محيي الدين أبو محمد صاحب المقامات والكرامات والعلوم والمعارف والأحوال المشهورة[2] ويقول ابن الجوزي عنه: تكلم على الناس بلسان الوعظ وظهر له صيت بالزهد وكان له سمت وصمت، وكان يجلس عند سور بغداد مستنداً إلى الرباط ويتوب عنده في المجلس خلق كثير[3].

* * *

(١) الذيل على طبقات الحنابلة (١/ ٢٩٤). (٢) المصدر نفسه (١/ ٢٩٠).

(٣) المصدر نفسه (١/ ٢٩١)، الشيخ عبد القادر ص ٦٩.

الفصل الثاني

منهجه في توضيح العقيدة

بيَّن رحمه الله عقيدته بوضوح وكان كثيراً ما يردد في مجالس وعظه وحلقات دروسه عبارة: اعتقادنا اعتقاد السلف الصالح والصحابة[1]. ومن خلال دراسة مؤلفات الشيخ عبد القادر الجيلاني يلاحظ الباحث أن له منهجاً واضح المعالم في إيضاح القضايا التي يعالجها خصوصاً قضايا العقيدة يمكن تلخيصه فيما يلي:

١- **عرضه للعقيدة بأسلوب بيان بليغ سهل العبارة**، تجنح حركة الإيقاع فيه إلى التوازي والتوازن، وهو توازن مبعثه توازن حركة النفس والرغبة في الإيضاح بعيداً عن التعقيد والغموض ومثال ذلك تعريفه للإيمان [2]: ونعتقد أن الإيمان قول باللسان ومعرفة بالجنان وعمل بالأركان، يزيد بالطاعة وينقص بالعصيان، ويقوى بالعلم ويضعف بالجهل وبالتوفيق يقع [3].

٢- **حرصه على عدم الخروج عن مدلول الآيات القرآنية والأحاديث النبوية** في إثبات الأسماء والصفات لله عز وجل - يدل على ذلك قوله: ولا نخرج عن الكتاب والسنة، نقرأ الآية والخبر ونؤمن بما فيهما ونكل الكيفية في الصفات إلى علم الله عز وجل [4].

٣- **يذكر الشيخ عبد القادر باستمرار أن عقيدته عقيدة السلف** ويطلب من الله أن يميته على مذهب إمام أهل السنة والجماعة، مثال ذلك قوله: قال الإمام أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل الشيباني رحمه الله وأماتنا على مذهبه أصلاً وفرعاً

(١) سير أعلام النبلاء (٢٠/ ٤٤٢)، الشيخ عبد القادر ص ٦٢.

(٢) الشيخ عبد القادر الجيلاني للقحطاني ص٧٠. (٣) الغنية للجيلاني (١/ ٦٢).

(٤) الشيخ عبد القادر الجيلاني للقحطاني ص ٧٢.

وحشرنا في زمرته[1] ويقول: عليكم بالاتباع من غير ابتداع، عليكم بمذهب السلف الصالح امشوا في الجادة المستقيمة[2].

٤- **رفض تأويل المتكلمين**: وهذا واضح من كلامه - رحمه الله - حيث يقول في صفة الاستواء: وينبغي إطلاق صفة الاستواء من غير تأويل، وأنه استواء الذات على العرش، لا على معنى القعود والمماسة كما قالت المجسمة والكرامية، ولا على معنى العلو والرفعة كما قالت الأشعرية ولا على معنى الاستيلاء الغلبة كما قالت المعتزلة لأن الشرع لم يرد بذلك[3].

٥- **الإمساك عما لم يرد ذكره في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ** من إثبات أو نفي[4]، وهذا واضح جلي في قوله - رحمه الله: - ونعوذ بالله من أن نقول فيه وفي صفاته مالم يخبرنا به هو أو رسوله ﷺ[5].

٦- **إعراضه عن علم الكلام**: من قواعد منهج الشيخ عبد القادر في إيضاح العقيدة إعراضه عن علم الكلام وعدم اعتماده عليه لأنه يرى أنه منشأ الضلالات التي وقع فيها القوم، ولذا نقل في كتابه الغنية قول الإمام أحمد رحمه الله: لست بصاحب كلام ولا أرى الكلام في شيء من هذا إلاّ ما كان في كتاب الله عز وجل أو حديث عن النبي ﷺ أو عن أصحابه رضي الله عنهم وعن التابعين. فأما غير ذلك فإن الكلام فيه غير محمود فلا يقال في صفات الرب عز وجل كيف ولم، ولا يقول ذلك إلا شاك[6].

فهذه هي أهم الجوانب البارزة في منهج الشيخ عبد القادر الجيلاني في إيضاح العقيدة[7].

---

(١) الغنية للجيلاني (١/ ٥٥).
(٢) الفتح الرباني، المجلس العاشر ص ٣٥.
(٣) الغنية للجيلاني (١/ ٥٦).
(٤) الشيخ عبد القادر الجيلاني ص ٧٨.
(٥) الغنية للجيلاني (١/ ٥٧).
(٦) الغنية للجيلاني (١/ ٥٦).
(٧) الشيخ عبد القادر الجيلاني للقحطاني ص ٨٢.

الفصل الثالث

من آراء الشيخ عبد القادر الجيلاني الاعتقادية

١- الإيمان:

قال الشيخ عبد القادر: ونعتقد أن الإيمان قول باللسان ومعرفة بالجنان وعمل بالأركان [١]. وقال في موضع آخر: الإيمان قول وعمل: فالقول دعوى والعمل هو البينة، والقول صورة والعمل روحها [٢].

- زيادة الإيمان ونقصانه:

ونعتقد أن الإيمان قول باللسان ومعرفة بالجنان وعمل بالأركان يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية[٣]. وقد استدل على ذلك بقوله تعالى: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٤]، وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الأنفال: ٢]، وقوله: ﴿لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا﴾ [٤] [المدثر: ٣١].

- الفرق بين الإيمان والإسلام:

قال الشيخ عبد القادر: وأما الإسلام فهو من جملة الإيمان، وكل إيمان إسلام وليس كل إسلام إيماناً. وقد استدل بقوله تعالى: ﴿قَالَتِ الأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ [الحجرات:١٤] وبحديث مجيء جبريل إلى النبي ﷺ وسؤاله عن الإسلام والإيمان، والإحسان [٥].

---

(١) الغنية للجيلاني (١/ ٦٢).
(٢) الشيخ عبد القادر الجيلاني ص ٨٩.
(٣) الغنية للجيلاني (١/ ٦٢).
(٤) الشيخ عبد القادر الجيلاني ص ٩٢.
(٥) البخاري رقم ٥٠، الغنية (١/ ٦٢).

٢- حكم مرتكب الكبيرة:

نحا الشيخ عبد القادر منحى أهل السنة والجماعة من أن مرتكب الكبيرة لا يخرج من الملة وأنه فاسق بمعصيته واقع تحت المشيئة في الدار الآخرة إن شاء الله عذّبه وإن شاء رحمه، وأنه لا يكفر بها إذا مات على التوحيد[١] حيث يقول: ونعتقد أن من أدخله الله النار بكبيرته مع الإيمان فإنه لا يخلد فيها بل يخرجه منها لأن النار في حقه كالسجن في الدنيا يستوفى منه بقدر كبيرته وجريمته ثم يخرج برحمة الله تعالى ولا يخلد فيها[٢]. ويقول في موضع آخر:

ونعتقد أن المؤمن وإن أذنب ذنوباً كثيرة من الكبائر والصغائر لا يكفر بها وإن خرج من الدنيا بغير توبة إذا مات على التوحيد والإخلاص، بل يرد علمه إلى الله عز وجل إن شاء عفا عنه وأدخله الجنة، وإن شاء عذبه وأدخله النار فلا يدخل بين الله وبين خلقه مالم يخبرنا الله بمصيره [٣].

٣- توحيد الربوبية:

أشار الشيخ عبد القادر إلى أن معرفة الله فطرية وأن النفس مقرة له بعبوديتها، وأن ذلك الإحساس نابع من داخل النفس البشرية [٤].

قال رحمه الله: النفس بأجمعها تابعة لربها موافقة له إذ هو خالقها ومنشؤها وهي مفتقرة له بالعبودية[٥] وأشار إلى النظر إلى الآيات الكونية المبثوثة في الأنفس والآفاق والذي يأتي في المرتبة الثانية بعد المعرفة الفطرية [٦] فيقول: «أما معرفة الصانع – عز وجل – بالآيات والدلالات على وجه الاختصار فهي أن

---

(١)، (٢) الغنية للجيلاني (١/ ٦٥) الشيخ عبد القادر الجيلاني ص ١٠٥.

(٣) الغنية للجيلاني (١/ ٦٥).

(٤) الشيخ عبد القادر الجيلاني ص ١١٦.

(٥) فتح الغيب للجيلاني المقالة العاشرة ص ٢١.

(٦) الشيخ عبد القادر الجيلاني ص ١١٦.

يعرف ويتيقن أن الله واحد أحد، فرد صمد ﴿اللَّهُ الصَّمَدُ ۞ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۞ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ [الإخلاص:٢-٤]، ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١] لا شبيه له ولا نظير، ولا عون ولا ظهير، ولا شريك ولا وزير، ولا ند ولا مشير[١]. والمسلم وإن كان في فطرته معرفة الله - عز وجل - لكنه بالنظر والتفكر في مخلوقاته سبحانه يزيد إيمانه ويقوي يقينه في خالقه عز وجل [٢]، والشيخ عبد القادر - رحمه الله - يؤكد هذا المعنى في مكان آخر فيقول: استدل بصنعة الله عليه، تفكر في الصنعة وقد وصلت إلى الصانع، المؤمن الموقن العارف له عينان ظاهرتان، وعينان باطنتان فيرى بالعينين الظاهرتين ما خلق الله في الأرض، ويرى بالعينين الباطنتين ما خلق الله في السموات [٣].

ويقول كذلك: أول ما ينظر العاقل في صفة نفسه وتركيبه ثم في جميع المخلوقات والمبدعات فيستدل بذلك على خالقها ومبدعها؛ لأن في ذلك دلالة على الصانع، وفي القدرة المحكمة آية على الحكيم [٤].

٤- توحيد الألوهية:

تناول الشيخ عبد القادر الجيلاني هذا النوع من التوحيد، وذكر أن الواجب على من أراد الدخول في دين الإسلام أن يتلفظ بكلمة التوحيد، وأن يتبرأ من كل دين غير الإسلام معتقداً بقلبه وحدانية الله [٥]، فيقول: والذي يجب على من يريد الدخول في دين الإسلام أولاً أن يتلفظ بالشهادتين لا إله إلا الله محمد رسول الله، ويتبرأ من كل دين غير دين الإسلام ويعتقد بقلبه وحدانية الله تعالى[٦] وفي مكان آخر يتحدث عما دعا الله خلقه إليه من توحيده وطاعته وما

---

(١) الغنية للجيلاني (١/ ٥٤)

(٢) الشيخ عبد القادر الجيلاني ص ١١٦.

(٣) الفتح الرباني للجيلاني المجلس الثالث ص ١٦.

(٤) فتوح الغيب للجيلاني مقالة ٧٤ ص ١١٣.

(٥) الشيخ عبد القادر الجيلاني ص ١٢٨.

(٦) الغنية للجيلاني (١/ ٢).

حذّرهم منه وخوّفهم وزجرهم من الشرك به والوقوع في معصيته[1]، فيقول: وقد دعا الله خلقه إلى توحيده وطاعته بالوعد والوعيد والترغيب والترهيب؛ فحذّر وأنذر وخوّف وزجر إعذاراً لهم وتأكيداً للحجة عليهم [2].

وبيّن الشيخ عبد القادر الجيلاني – رحمه الله – أن مجرد النطق بكلمة التوحيد من غير امتثال الأمر وترك النهي غير مقبول ولا يستفيد منه الإنسان فيقول: إذا قلت لا إله إلاّ الله فقد ادعيت. فيقال لك: ألك بينة؟ والبينة امتثال الأمر والانتهاء عن النهي والصبر على الآفات والتسليم إلى القدر.. هذه بينة الدعوى[3].

٥- شروط قبول العبادة:

وقد أقر الشيخ عبد القادر الجيلاني ضرورة توافر الإخلاص والمتابعة في العبادة وبيّن أن مجرد النطق بالشهادتين وأداء الأعمال التي تقتضيها لا يكفي إلا بعد تحقق الشرطين [4]، يقول: إذا عملت هذه الأعمال – يعني الإتيان بالأوامر وترك النواهي – لا تقبل منك إلا بالإخلاص فلا يقبل قول بلا عمل، ولا عمل بلا إخلاص وإصابة السنة [5].

– ويقول في موضع آخر: وجميع ما ذكرناه من صيام الأشهر والأضحية والعبادات، من الصلاة والأذكار وغير ذلك مما سنذكر – إن شاء الله – لا يقبل إلا بعد التوبة وطهارة القلب وإخلاص العمل لله تعالى وترك الرياء والسمعة[6]. ثم يستشهد على وجوب الإخلاص بقول الله تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [البينة: ٥] وقال سبحانه ﴿أَلاَ لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾ [الزمر: ٣]. ثم ساق بعض أقوال أهل العلم في تعريف الإخلاص فنقل عن سعيد بن

---

(١) عبد القادر الجيلاني للقحطاني ص ١٢٩.

(٢) الغنية للجيلاني (١/ ١٤٦)، عبدالقادر الجيلاني ص ١٢٩.

(٣) الفتح الرباني المجلس الثاني ص ١٠.

(٤) الشيخ عبد القادر الجيلاني ص ١٣٤.

(٥) الفتح الرباني للجيلاني ص ١٣٤.

(٦) الغنية للجيلاني (٢/ ٦٦)، الشيخ عبد القادر ص ١٣٤.

جبير قوله: الإخلاص أن يخلص العبد دينه وعمله لله تعالى، ولا يشرك به في دينه ولا يرائي بعمله أحداً، كما نقل عن الفضيل بن عياض قوله: ترك العمل من أجل الناس رياء، والعمل من أجل الناس شرك، والإخلاص هو الخوف من أن يعاقبك الله عليهما[1]. وقد حذّر كثيراً من الرياء والعجب وذلك لخطورته على دين العبد ولسهولة وقوع الإنسان فيه فقال: ينبغي لكل متعبد عارف أن يحذر في جميع أحواله من الرياء ورؤية الخلق والعُجب، فإن النفس خبيثة وهي منشأ الأهواء المضلة والشهوات المردية واللذات الحائلة بين العبد وبين الحق عز وجل. ثم ساق الأدلة على تحريم الرياء، منها قوله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۞ الَّذِينَ هُمْ عَن صَلاَتِهِمْ سَاهُونَ ۞ الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ ۞ وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ﴾ [الماعون: ٤ - ٧] وبوصفه عز وجل للمنافقين ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلاَةِ قَامُوا كُسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلاَ يَذْكُرُونَ اللّهَ إِلاَّ قَلِيلاً ۞ مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لاَ إِلَى هَؤُلاَءِ وَلاَ إِلَى هَؤُلاَءِ وَمَن يُضْلِلِ اللّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ سَبِيلاً﴾ [النساء: ١٤٢، ١٤٣]. كما استشهد من السنة بأحاديث صحيحة منها قوله: يلقى الرجل في النار فتندلق أقتاب بطنه فيدار به كما تدور الرحى بصاحبها فيقال له: أليس كنت تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر، فيقول: كنت آمر بالمعروف ولا آتيه وأنهى عن المنكر وآتيه[2]

٦- من أنواع العبادة:

أ- الدعاء:

من أعظم أنواع العبودية الدعاء والالتجاء لله تعالى لأن معاني العبادة والخضوع والتذلل والفقر والاحتياج تبدو واضحة جلية في الدعاء، والدعاء لا يكون إلا لله وحده، ولذلك توعد الله المستكبرين عن دعائه بالدخول في النار وبئس القرار[3]، قال عز وجل: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ

---

(١) الغنية للجيلاني (٢/ ٦٧)، الشيخ عبد القادر ص ١٣٥.

(٢) مسلم رقم ٢٩٨٩، الغنية للجيلاني (٢/ ٦٨). (٣) الشيخ عبد القادر الجيلاني ص ١٣٨.

يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾[1]، وقد ذكر الشيخ عبد القادر الجيلاني – رحمه الله – بعض الآداب التي يجب مراعاتها عند الدعاء فقال: والأدب في الدعاء أن يمد يديه ويحمد الله ويصلي على النبي ﷺ ثم يسأل حاجته[2].

ب- التوكل:

وهو أصل من أصول العبادة وهو من سمات المؤمنين الصادقين، قال عز وجل: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾[الأنفال: ٢]. وقد عرف الشيخ عبد القادر حقيقة التوكل بقوله: وحقيقة الإخلاص ارتفاع الهمة عن طلب الأعواض على الأعمال، وكذلك التوكل هو الخروج من الحول والقوة مع السكون إلى رب الأرباب[3]، وهو يعنى بذلك عدم الاعتماد على حول الإنسان وقوته وإمكانياته وإنما يعتمد ويسكن إلى ربه تبارك وتعالى وحوله وقوته، ولكن لا يعني بذلك ترك الأسباب وعدم الأخذ بها بل يدعو إلى إعطاء الأسباب حقها وذلك بالأخذ بها وعدم تجاهلها، ثم التوكل بعد ذلك على الله سبحانه حيث يقول: اعط السبب حقه وتوكل واقعد على باب العمل[4].

وذلك أن الأخذ بالأسباب لا ينافي التوكل على الله عز وجل، فإن الله عز وجل كما أمر بالاعتماد عليه والتوكل عليه وحده أمر بالأخذ بالأسباب فقال مخبراً عن عيسى ابن مريم وهو يخاطب أمه: ﴿وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا﴾ [مريم: ٢٥] إذ كان في قدرته سبحانه أن ينزل الرطب

(١) المصدر نفسه ص ١٣٨.

(٢) الغنية للجيلاني (١/ ٤٠).

(٣) بهجة الأسرار للشطنوفي ص ١٢٢.

(٤) الفتح الرباني للجيلاني، المجلس الخمسون ص١٦٧.

من غير أن تقوم مريم بهز الجذع [(١)]، وأيضاً أخبر – عز وجل – أن يعقوب – عليه السلام – قال لبنيه: ﴿لاَ تَدْخُلُوا مِن بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ وَمَا أُغْنِي عَنكُم مِّنَ اللهِ مِن شَيْءٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ للهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ [يوسف: ٦٧] فمع توكله على الله – عز وجل – أمر أولاده بالأخذ بالسبب وهو التفرق عند الدخول حتى لا يصابوا بالعين الحاسدة [(٢)]، أو يلفتوا الانتباه عند دخول مصر. وعند الترمذي من حديث أنس بن مالك أن رجلاً قال للنبي ﷺ: يا رسول الله أعقلها وأتوكل أو أطلقها وأتوكل؟ قال ﷺ: اعقلها وتوكل [(٣)].

ج- الخوف والرجاء:

وهذان من أنواع العبادة التي أمر الله بها وأثنى على المؤمن المتحلي بها، قال عز وجل في الخوف: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ﴾ [الرحمن: ٤٦] وقال في الرجاء: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللهِ أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللهِ وَاللهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة:٢١٨]. وقد تحدث الشيخ عبد القادر عن الخوف والرجاء فقال: من غلب رجاؤه خوفه تزندق، ومن غلب خوفه رجاؤه قنط، والسلامة في اعتدالهما [(٤)]، وهذا الاعتدال يوافق ما قاله الإمام أحمد بن حنبل: «ينبغي للمؤمن أن يكون رجاؤه وخوفه واحداً» [(٥)].

وأما حجم الخوف وقدره، فيحدده ابن القيم بأنه: ما حال بين صاحبه وبين محارم الله – عز وجل – فإذا تجاوز ذلك خيف منه اليأس والقنوط، ويذكر أنه سمع ابن تيمية يقول: الخوف المحمود ما حجزك عن محارم الله [(٦)]، وعن الرجاء

(١) الشيخ عبد القادر الجيلاني ص ١٤١.	(٢) المصدر نفسه ص ١٤١.
(٣) سنن الترمذي رقم ٢٥١٩ وقد حسنه الألباني في صحيح الجامع رقم ١٠٦٨.
(٤) الفتح الرباني للجيلاني- المجلس الخامس والعشرون ص ٩١.
(٥) مسائل الإمام أحمد لابن هاني، تحقيق الشاويش (٢/ ١٧٨).
(٦) الشيخ عبد القادر الجيلاني ص ١٤٤، مدارج السالكين (١/ ٥١١).

يؤكد ابن القيم أن «من رجا شيئاً استلزم رجاؤه ثلاثة أمور: الأول محبة ما يرجوه والثاني خوفه من فواته والثالث سعيه في تحصيله بحسب الإمكان، وأن الرجاء الذي لا يقارنه شيء من ذلك فهو من باب الأماني، والرجاء شيء والأماني شيء آخر، فكل راج خائف، والله سبحانه وصف أهل السعادة بالإحسان مع الخوف ووصف الأشقياء بالإساءة مع الأمن» [1].

د- ما ينقض التوحيد:

ولقد دعا الشيخ عبد القادر الجيلاني إلى التوحيد وحذّر من الوقوع في الشرك في جملة وصاياه فقال: وحدوا ولا تشركوا [2]، وقال في توجيه آخر: أخلصوا ولا تشركوا، وحدوا الحق – عز وجل – وعن بابه لا تبرحوا سلوه ولا تسألوا غيره، واستعينوا به ولا تستعينوا بغيره، توكلوا عليه ولا تتوكلوا على غيره [3].

٧- توحيد الأسماء والصفات:

وأشار الشيخ عبد القادر الجيلاني إلى هذا التوحيد بقوله: انفوا ثم أثبتوا، انفوا عنه مالا يليق به، وأثبتوا له ما يليق به، وهو ما رضيه لنفسه ورضيه له رسوله ﷺ، إذا فعلتم هذا زال التشبيه والتعطيل من قلوبكم [4]، وقال رحمه الله: ولا نخرج عن الكتاب والسنة، نقرأ الآية والخبر ونؤمن بها فيهما ونكل الكيفية إلى علم الله [5]. فاشتمل كلامه – رحمه الله- على الأسس الثلاثة التي يقوم عليها منهج أهل السنة والجماعة في إثبات الأسماء والصفات وهي:

---

(١) الجواب الكافي لابن القيم ص ٤٦.

(٢) فتوح الغيب المقالة الثانية ص ١٠.

(٣) الفتح الرباني للجيلاني- المجلس السابع والأربعون ص ١٥١.

(٤) الفتح الرباني للجيلاني- المجلس السابع والأربعون ص ٦٢.

(٥) الغنية للجيلاني (١/٥٧).

* إثبات الأسماء والصفات.

* تنزيه الله عز وجل عن مشابهة خلقه.

* الاعتراف بالعجز عن إدراك الكيفية [1].

أ- الصفات الذاتية:

وهي الصفات المتعلقة بذات الباري سبحانه – ولا تتعلق بالمشيئة والاختيار بل لا تنفك عن الرب – عز وجل – بحال من الأحوال باعتبارها من لوازم الذات الإلهية ومنها [2]:

- **اليدان،** من الصفات الثابتة لله عز وجل، وقد أشار الشيخ عبد القادر الجيلاني إلى ثبوت هذه الصفة لله سبحانه فقال: له يدان وكلتا يديه يمين، قال عز وجل: ﴿وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ﴾ [الزمر: ٦٧] وروى نافع عن ابن عمر – رضي الله عنهما – أنه قال: قرأ رسول الله ﷺ على المنبر والسموات مطويات بيمينه يرمي بها كما يرمي الغلام بالكرة ثم يقول: أنا العزيز، فلقد رأيت رسول الله يتحرك على المنبر حتى كاد يسقط [3].

- **صفة القدَم،** من الصفات الذاتية التي وردت بها الأدلة الصحيحة صفة القدم لله -عز وجل – والشيخ عبد القادر الجيلاني يثبت لله هذه الصفة فيقول: ويضع قدمه في جهنم فينزوي بعضها إلى بعض وتقول: قط قط [4]، وهو بهذا يشير إلى الأحاديث الصحيحة التي جاء ذكر القدم فيها، منها: عن أنس بن مالك عن النبي ﷺ قال: **لا تزال جهنم تقول هل من مزيد حتى يضع فيها رب العزة تبارك وتعالى قدمه فتقول: قط قط وعزتك ويزوي بعضها إلى بعض** [5]. وقد تلقى علماء أهل

---

(١) الشيخ عبد القادر الجيلاني ص ١٦٧.

(٢) المصدر نفسه ص ١٨٠

(٣) البخاري رقم ٧٤١٢، الشيخ عبد القادر ص ١٨٠.

(٤) الغنية للجيلاني (١/ ٥٥).

(٥) البخاري رقم ٧٣٣٩، مسلم رقم ٢٨٤٦.

السنة والجماعة هذه الأحاديث الصحيحة بالقبول ومرروها كما جاءت ولم يخوضوا في الكيفية [1].

- **صفة الأصابع:** يثبت الشيخ عبد القادر الجيلاني الأصابع لله عز وجل لورود الأدلة الصحيحة بشأنها فيقول: وقلوب العباد بين إصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف يشاء [2]. وعلى هذا الإثبات درج علماء أهل السنة والجماعة كعادتهم في إثبات ما جاء في الكتاب والسنة من الصفات على ما يليق بجلال الله -عز وجل- من غير تكييف ولا تمثيل [3].

- **صفة العلو:** من صفات الكمال للذات الإلهية صفة العلو وهي فرع من توحيد الأسماء والصفات، والله سبحانه متصف بالعلو المطلق من جميع الوجوه ذاتاً وقدراً وقهراً [4]، والشيخ عبد القادر الجيلاني يثبت هذه الصفة فيقول: وهو بجهة العلو مستو على العرش، محتو على الملك، محيط علمه بالأشياء ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ [فاطر: ١٠] ﴿يُدَبِّرُ الأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ [السجدة: ٥] [5].

ب - الصفات الفعلية:

وهي التي تتعلق بمشيئة الله وإرادته سبحانه بحيث إن شاء الرب – عز وجل- فعلها وإن شاء لم يفعلها، وكل صفة فعلية فهي صفة ذاتية من جهة قدرة الرب – عز وجل – على فعلها في أي وقت شاء ومن هذه الصفات:

- **الاستواء:** أخذ الشيخ عبد القادر الجيلاني في مسألة الاستواء بالمعنى الذي أثبته النص القرآني من غير تأويل ولا تعطيل [6]، حيث قال: وينبغي إطلاق

(١) الشيخ عبد القادر الجيلاني ص ١٨٣.
(٢) الغنية للجيلاني (١/ ٥٥).
(٣) الشيخ عبد القادر الجيلاني ص ١٨٥.
(٤) المصدر نفسه ص ١٨٧.
(٥) الغنية للجيلاني (١/ ٥٤).
(٦) الشيخ عبد القادر الجيلاني ص ١٩٤.

صفة الاستواء من غير تأويل، وأنه استواء الذات على العرش لا على معنى العلو والرفعة كما قالت الأشعرية ولا على معنى الاستيلاء والغلبة كما قالت المعتزلة؛ لأن الشرع لم يرد بذلك ولا نقل عن أحد من الصحابة والتابعين من السلف الصالح من أصحاب الحديث بل المنقول عنهم حمله على الإطلاق[1]، وقد استدل - رحمه الله - على ذلك بما روي عن أم سلمة زوج النبي ﷺ رضي الله عنها - في قوله - عز وجل -: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ [طه: ٥] قالت: الكيف غير معقول والاستواء غير مجهول والإقرار به واجب والجحود به كفر. وقد أسنده مسلم بن الحجاج عنها عن النبي ﷺ في صحيحه[2]، وكذلك في حديث أنس بن مالك ﷺ[3].

- **صفة النزول:** من الصفات الثابتة لله - عز وجل - صفة النزول من غير تكييف ولا تمثيل بل على وجه يليق بجلال الله لا يعلمه إلا هو: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

والشيخ عبد القادر الجيلاني كعادته في إثبات الصفات يثبت هذه الصفة وينفي أن تكون نزول رحمته وثوابه[4]... فيقول: وأنه تعالى ينزل في كل ليلة إلى سماء الدنيا كيف يشاء، وكما شاء فيغفر لمن أذنب وأخطأ وأجرم وعصى ممن يختار من عباده ويشاء، تبارك وتعالى العلي الأعلى، لا إله إلاّ هو، له الأسماء الحُسنى، لا بمعنى نزول رحمته وثوابه على ما ادعته المعتزلة، والأشعرية[5]. وقد استدل أهل السنة على ذلك بالأدلة الصريحة الصحيحة

---

(١) الغنية للجيلاني (١/٥٦).

(٢) هذا لم يرد في شيء من الكتب الستة ولا المسند، وإنما ورد في كتب أخرى رواه اللالكائي رقم ٦٦٣ موقوفا عليها.

(٣) هذا القول منقول عن جماعة من السلف كربيعة الراي ومالك.

(٤) الشيخ عبد القادر الجيلاني ص ٢٠٣.

(٥) الغنية للجيلاني (١/٥٧).

والتي منها حديث أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: ينزل ربنا تبارك وتعالى كل ليلة إلى السماء الدنيا حتى يبقى ثلث الليل الآخر فيقول: من يدعوني فأستجيب له، من يسألني فأعطيه من يستغفرني فأغفر له [1].

- **صفة الكلام:** صفة الكلام صفة ذات باعتبار نوع الكلام، وصفة فعل باعتبار تعلقها بإرادة الله عز وجل ومشيئته فهو سبحانه لم يزل متكلماً إذا شاء ومتى شاء وكيف شاء، يتكلم بصوت يُسمع، يسمعه من شاء من خلقه، سمعه موسى عليه السلام من غير واسطة، وسمعه من أذن له من ملائكته ورسله، وسيسمعه المؤمنون في الآخرة ممن سبقت لهم من الله الحسنى نرجو أن نكون منهم. والشيخ عبد القادر الجيلاني يقرر ثبوت هذه الصفة لله سبحانه ويصف من ينكر ذلك بالابتداع فيقول وهو يخاطب المبتدعة [2]: يا مبتدع: ما يقدر أن يقول أنا الله إلاّ الله. ربنا عز وجل متكلم ليس بأخرس ولهذا أكّد الله عز وجل الأمر في كلامه لموسى فقال: ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾ [3] [النساء: ١٦٤].

٨- عقيدة الشيخ عبد القادر الجيلاني في القرآن الكريم:

لقد قرر الشيخ الجيلاني عقيدته في هذه المسألة المهمة من مسائل العقيدة بيان أن القرآن الكريم كلام الله المنزل على رسوله ﷺ حيث يقول: ونعتقد أن القرآن كلام الله وكتابه وخطابه ووحيه الذي نزل به جبريل على رسول الله ﷺ، كما قال الله عز وجل: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ۞ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ۞ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾ [الشعراء: ١٩٣- ١٩٥]. هو الذي بلغه رسول الله ﷺ أمته امتثالاً لأمر رب العالمين، يقول تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن

(١) البخاري رقم ١١٤٥، مسلم رقم ٧٥٨.
(٢) الشيخ عبد القادر الجيلاني ص ٢٠٦.
(٣) الفتح الرباني للجيلاني، المجلس الستون ص ٢٠٩.

رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ [المائدة: ٦٧] (١).

وفي وصاياه التي كان يوجهها لطلابه كان يؤكد على وجوب التأدب مع كتاب الله بعدم القول بخلقه فيقول: احترموا كتاب الله وتأدبوا معه، هو الوصلة بينكم وبين الله، لا تجعلوه مخلوقاً يقول الله عز وجل: هذا كلامي، وتقولون أنتم: لا؛ من رد على الله وجعل القرآن مخلوقاً كفر بالله وبريء منه. هذا القرآن المتلو، هذا المقروء، هذا المسموع، هذا المنظور، هذا المكتوب في المصاحف كلامه عز وجل (٢).

٩- رؤية الله عز وجل عند الشيخ عبد القادر الجيلاني:

ذهب الشيخ عبد القادر الجيلاني إلى إثبات رؤية المؤمنين لربهم في الجنة في الدار الآخرة حيث يقول: وينظر أهل الجنة إلى وجهه ويرونه لا يضامون في رؤيته. قال تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦] قيل الحسنى: هي الجنة، والزيادة: النظر إلى وجهه الكريم، قال تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۞ إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٢ – ٢٣] (٣).

١٠- القضاء والقدر عند الشيخ عبد القادر الجيلاني:

يقول الشيخ عبد القادر: ينبغي أن يؤمن المرء بخير القدر وشره وحلو القضاء ومره، وأن ما أصابه لم يكن ليخطئه بالحذر وما أخطأه من الأسباب لم يكن ليصيبه بالطلب، وأن جميع ما كان في سالف الدهور والأزمان، وما يكون إلى يوم البعث والنشور بقضاء الله وقدره المقدور. وأنه لا محيص لمخلوق من القدر المقدور الذي خط في اللوح المسطور (٤).

---

(١) الغنية للجيلاني (١/ ٥٨).

(٢) الفتح الرباني للجيلاني ، المجلس الحادي عشر ص ٤١.

(٣) الغنية (١/ ٥٥)، الشيخ عبد القادر ص ٢٤١. (٤) الغنية (١/ ٦٥)، الشيخ عبد القادر ص ٢٦٢.

١١- عذاب القبر وسؤال منكر ونكير:

يقرر الشيخ عبد القادر وجوب الإيمان بنعيم القبر وعذابه فيقول: والإيمان بعذاب القبر وضغطته واجب لأهل المعاصي والكفر وجميع الخلق سوى النبيين ثم يخفف عن المؤمنين برحمة الله. وكذلك النعيم فيه لأهل الطاعة والإيمان [١]، كما يقرر وجوب الإيمان بمنكر ونكير وأنهما يسألان الميت في قبره. ونؤمن بأن منكراً ونكيراً إلى كل أحد ينزلان سوى النبيين ويسألانه ويمتحنانه عما يعتقده من الأديان، وهما يأتيانه بالقبر فيُرسل فيه الروح ثم يقعد فإذا سئل سُلتْ روحه [٢]. وقد استدل أهل السنة والجماعة بعذاب القبر ونعيمه بنصوص الكتاب الكريم والسنة المطهرة منها؛ قول الله تعالى: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾ [إبراهيم: ٢٧]. وقد فسرها النبي ﷺ قال: إذا اقعد المؤمن في قبره اتى ثم شهد الا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله فذلك قوله:﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ﴾. نزلت في عذاب القبر [٣].

١٢- الشفاعة:

يقرر الشيخ عبد القادر وجوب الإيمان بشفاعة النبي ﷺ فيقول: والإيمان بأن الله تعالى يقبل شفاعة نبينا محمد ﷺ في أهل الكبائر والأوزار واجب قبل دخول النار عامة للحساب لجميع أمم المؤمنين وبعد دخولها لأمته خاصة فيخرجون منها بشفاعته ﷺ وغيره من المؤمنين حتى لا يبقى في النار من كان في قلبه مثقال ذرة من الإيمان، ومن قال لا إله إلا الله محمد رسول الله مرة واحدة في عمره مخلصاً لله عز وجل [٤].

(١) الغنية للجيلاني (١/ ٦٦).
(٢) المصدر نفسه (١/ ٦٦).
(٣) البخاري ١٣٦٩ ، مسلم رقم ٢٨٧١.
(٤) الغنية للجيلاني (١/ ٦٩).

١٣- الحوض:

يذكر الشيخ عبد القادر الجيلاني أن عقيدة أهل السنة هي الإيمان بوجود حوض النبي ﷺ، فيقول: وأهل السنة يعتقدون أن لنبينا محمد ﷺ حوضاً في القيامة يسقى منه المؤمنون دون الكافرين، ويكون ذلك بعد جواز الصراط قبل دخول الجنة من شرب منه شربة لم يظمأ بعدها أبداً عرضه مسيرة شهر، ماؤه أشد بياضاً من اللبن وأحلى من العسل، حوله أباريق على عدد نجوم السماء، فيه ميزابان يصبان من الكوثر أصله في الجنة وفرعه في الموقف [(١)]. وقد قال رسول الله ﷺ: **أنا فرطكم على الحوض من ورده شرب منه لم يظمأ بعده أبداً، ليردن عليّ اقوام أعرفهم ويعرفوني ثم يحال بيني وبينهم** [(٢)].

١٤- الصراط:

وأكد الشيخ عبد القادر الجيلاني في تعاليمه على وجوب الإيمان بالصراط فقال: والإيمان بالصراط على جهنم واجب وهو جسر ممدود على متن جهنم يأخذ من يشاء الله إلى النار، ويجوز من يشاء، ويسقط في جهنم من يشاء، ولهم في تلك الأحوال أنوار على قدر أعمالهم فهم بين ماشٍ وساعٍ وراكب وزاحف وسحب [(٣)]. قال تعالى: ﴿وَإِن مِنكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا ۞ ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾ [مريم: ٧١- ٧٢]. ووردت أحاديث من السنة تضمنت ذكر الصراط وصفاته وصفة المرور عليه [(٤)].

١٥- الميزان:

وردت النصوص الشرعية التي تؤكد وزن الأعمال يوم القيامة والشيخ عبد القادر يذكر أن الإيمان به هو عقيدة أهل السنة فيقول: ويعتقد أهل السنة أن لله

---

(١) الغنية للجيلاني (١/ ٧١).

(٢) البخاري رقم ٦٥٨٣، مسلم رقم ٢٢٩٠.

(٣) الغنية للجيلاني (١/ ٧٠).

(٤) الشيخ عبد القادر الجيلاني ص ٣٧١.

تعالى ميزاناً يزن فيه الحسنات والسيئات يوم القيامة له كفتان ولسان، وقد أنكرت المعتزلة مع المرجئة والخوارج ذلك فقالت: إن معنى الميزان: العدل دون موازنة الأعمال وفي كتاب الله وسنة رسوله ﷺ تكذيبهم قال تعالى: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٧] وقال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ ۞ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ۞ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ ۞ فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ﴾ [القارعة: ٦-٩]. والعدل لا يوصف بالخفة والثقل[1].

وقال رسول الله ﷺ: كلمتان حبيبتان إلى الرحمن، خفيفتان على اللسان، ثقيلتان في الميزان سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم[2].

هذه بعض المسائل العقدية التي كان الشيخ عبد القادر الجيلاني يربي عليها تلاميذه ويبثها في الجمهور العام في عاصمة الخلافة العباسية بغداد، وكان لها تأثير كبير في رجوع الناس إلى الله والالتزام بدينه وأسهمت على العموم في نهضة الأمة حتى استطاعت التصدي للتغلغل الباطني والغزو الخارجي.

* * *

(١) الغنية للجيلاني (١/ ٧٢).

(٢) البخاري رقم ٦٤٠٦، مسلم ٢٦٩٤.

الفصل الرابع

البدعة وموقف الشيخ عبد القادر منها

١- أهمية الاعتصام بالكتاب والسنة:

مدار سعادة الإنسان في الدارين وفوزه وفلاحه في الحياتين يعتمد على مدى اعتصامه بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ، لأنهما النوران اللذان يضيئان للإنسان طريقه وهو يعبر دروب الحياة ومجاهيلها[١]، والشيخ عبد القادر يقرر ذلك في قوله: لا فلاح لك حتى تتبع الكتاب والسنة[٢]، ويقول: إذا لم تتبع الكتاب والسنة ولا الشيوخ العارفين بهما فما تفلح أبداً [٣].

٢- ذم البدع والتحذير منها:

والشيخ عبد القادر الجيلاني يحذر دائماً من الابتداع في الدين ويوصي بالاتباع ويقرن ذلك بوصيته بالتوحيد وضرورة مجانبة الشرك حيث يقول: اتبعوا ولا تبتدعوا، وأطيعوا ولاتمرقوا، ووحدوا ولا تشركوا[٤]، ويقول في موضع آخر: اتبعوا ولا تبتدعوا، وافقوا ولا تخالفوا، أطيعوا ولا تعصوا، أخلصوا ولا تشركوا[٥].

وبين أن أساس الخير في متابعة النبي ﷺ فيقول: أساس الخير متابعة النبي ﷺ في قوله وفعله[٦]، ثم بيّن أن الأولى للمؤمن العاقل أن يتبع السنة فيقول: والأولى للعاقل المؤمن الكيس أن يتبع ولا يبتدع ولا يغالي ويعمق ويتكلف لئلا يضل ويزل ويهلك [٧].

---

(١) الشيخ عبد القادر الجيلاني ص ٤١١.
(٢) الفتح الرباني للجيلاني- المجلس التاسع والثلاثون ص ١٢٨.
(٣) المصدر نفسه ص ١٢٨.
(٤) فتوح الغيب للجيلاني المقالة الثانية ص ١٠.
(٥) الفتح الرباني للجيلاني المجلس السابع والأربعون ص ١٥١.
(٦) الغنية للجيلاني (١/ ٧٩). (٧) مسلم رقم ١٧١٨.

وقد استدل أهل السنة والجماعة على ذم البدع ومحاربتها بالأدلة الكثيرة من كتاب الله عز وجل وسنة رسوله ﷺ، قال تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٣]. وقال ﷺ: من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد[1].

وقال الشيخ عبد القادر الجيلاني أيضاً:

فعلى المؤمن اتباع السنة والجماعة، فالسنة ما سنه رسول الله ﷺ والجماعة ما اتفق عليه أصحاب رسول الله ﷺ في خلافة الأئمة الأربعة الخلفاء الراشدين المهديين رحمة الله عليهم أجمعين.

ثم بعد هذا التعريف لأهل السنة والجماعة يحذر من أهل البدع فيقول:

والا يكاثر أهل البدع ولا يدانيهم ولا يسلم عليهم؛ لأن الإمام أحمد رحمه الله قال: من سلم على صاحب بدعة فقد أحبه[2]، ولقول النبي ﷺ: أفشوا السلام بينكم تحابوا[3]. ولا يجالسهم ولا يقرب منهم ولا يهنيهم في الأعياد وأوقات السرور ولا يصلي عليهم إذا ماتوا ولا يترحم عليهم إذا ذكروا بل يباينهم ويعاديهم في الله عز وجل معتقداً ومحتسباً بذلك الثواب الجزيل والأجر الكثير[4].

وقال: واعلم أن لأهل البدع علامات يعرفون بها فعلامة أهل البدع الوقيعة في أهل الأثر، وعلامة الزنادقة تسميتهم أهل الأثر بالحشوية وعلامة القدرية تسميتهم أهل الأثر مجبرة وعلامة الجهمية تسميتهم أهل السنة مشبهة وعلامة الرافضة تسميتهم أهل الأثر ناصبة، وكل ذلك عصبية وغياظ لأهل السنة

(١) الشيخ عبد القادر الجيلاني ص ٤٣١. (٢) مسلم رقم ٥٤.

(٣) الغنية للجيلاني (١/ ٨٠)، الشيخ عبد القادر الجيلاني ص٤٣١.

(٤) الغنية للجيلاني (١/ ٨٠)، الشيخ القادر الجيلاني ص ٤٣٢.

ولا اسم لهم إلا اسمًا واحدًا وهو أصحاب الحديث ولا يلتصق بهم ما لقبهم به أهل البدع كما لم يلتصق بالنبي ﷺ تسمية كفار مكة له ساحراً وشاعراً ومجنوناً ومفتوناً وكاهناً، ولم يكن اسمه عند الله وعند ملائكته وعند إنسه وجنه وسائر خلقه إلا رسولاً نبياً بريئاً من العاهات كلها [1].

٢- طاعة أولي الأمر:

يرى الشيخ عبد القادر الجيلاني طاعة أولى الأمر حيث يقول: وأهل السنة أجمعوا على السمع والطاعة لأئمة المسلمين واتباعهم والصلاة خلف كل بر منهم وفاجر، والعادل منهم والجائر ومن ولّوه ونصبوه واستنابوه [2].

* * *

(١) الشيخ عبد القادر الجيلاني ص ٤٧٧.

(٢) الشيخ عبد القادر الجيلاني ص ٥٠٧.

الفصل الخامس

مفهوم التصوف عند الشيخ عبد القادر الجيلاني

رسم الشيخ عبد القادر الجيلاني منهجاً متكاملاً للتصوف يجمع بين العلم الشرعي المؤسس على كتاب الله وسنة رسوله ﷺ وبين التطبيق العملي والالتزام بالشرع [1]، فقد قال رحمه الله: انظر لنفسك نظر رحمة وشفقة، واجعل الكتاب والسنة أمامك وانظر فيهما واعمل بهما ولا تغتر بالقيل والقال والهوس، قال تعالى: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾ [الحشر: ٧] ولا تخالفوه فتتركوا العمل بما جاء به ولا تخترعوا لأنفسكم عملاً وعبادة كما قال الله عز وجل في حق قوم ضلوا سواء السبيل ﴿ وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ﴾[2] [الحديد:٢٧] وقال: يا قوم انصحوا القرآن بالعمل به لا بالمجادلة فيه، الاعتقاد كلمات يسيرة والأعمال كثيرة، عليكم بالإيمان به صدقوا بقلوبكم واعملوا بجوارحكم واشتغلوا بما ينفعكم ولا تلتفتوا إلى عقول ناقصة دنية [3].

١- تعريف التصوف عند الشيخ:

قال: التصوف هو الصدق مع الحق وحسن الخُلق مع الخَلْق [4]. وقال: هو تقوى الله وطاعته ولزوم ظاهر الشرع وسلامة الصدر وسخاء النفس وبشاشة الوجه وبذل الندى وكف الأذى وتحمل الأذى والفقر وحفظ حرمات المشايخ والعشرة مع الإخوان والنصيحة للأصاغر والأكابر وترك الخصومة والإرفاق وملازمة الإيثار ومجانبة الادخار وترك صحبة من ليس من طبقتهم والمعاونة في

---

(١) فتوح الغيب للجيلاني ، المقالة السادسة والثلاثون ص ٦٥.
(٢) الفتح الرباني للجيلاني ، المجلس الحادي عشر ص ٤١.
(٣) فتوح الغيب للجيلاني ، المقالة السابعة والخمسون ص ١٦٦.
(٤) زاد المعاد في هدي خير العباد (١/ ٧١).

أمر الدين والدنيا. وبيَّن الشيخ عبد القادر الجيلاني أن التصوف يقوم على عدة خصال:

أ- السخاء:

ويجعل القدوة في ذلك خليل الرحمن إبراهيم عليه السلام الذي اشتهر صلوات الله وسلامه عليه بذلك.

ب- الرضا:

ويجعل القدوة فيه إسحاق بن إبراهيم عليه السلام، وكأنه بهذا يشير إلى أنه هو الذبيح وأن استسلامه لأمر ربه ورضاه كان أبرز صفاته، وهذا القول مرجوح عند أهل السنة والجماعة، فقد ذكر ابن القيم - رحمه الله - الخلاف في هذه المسألة ورجَّح بالأدلة القاطعة والبراهين القوية أن الذبيح هو إسماعيل عليه وعلى نبينا وعلى سائر الأنبياء أفضل الصلاة وأزكى السلام [(١)].

ج- الصبر:

والقدوة في التخلق بهذا الخلق العظيم أيوب عليه السلام، فقد أثنى الله عليه بقوله: ﴿وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِب بِّهِ وَلاَ تَحْنَثْ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِّعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ [ص:٤٤]. وذلك لما تحلى به من الصبر لمواجهة تلك الابتلاءات العظيمة التي لا يكاد يطيقها بشر في جسده وماله وولده [(٢)].

د - الإشارة:

ويذكر أن القدوة فيها هو زكريا عليه السلام وكأنه يشير بهذا إلى سرعة بديهته وشدة فهمه وذكائه عليه السلام، فإنه لما رأى أن الله يرزق مريم فاكهة الشتاء في الصيف وفاكهة الصيف في الشتاء أدرك بفطنته مدى قدرة الله عز

---

(١) تفسير ابن كثير (٤/ ٣٩).

(٢) الشيخ عبد القادر الجيلاني ص ٥١١.

وجل وعدم ارتباطها بالأسباب، وأن الله قادر على أن يرزقه ولداً ولو كان شيخاً كبيراً قد وهن عظمه واشتعل بالشيب رأسه مع كبر امرأته فدعا الله وناداه وقال: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ [1] [آل عمران: ٣٨].

هـ - التصوف:

والقدوة في ذلك موسى بن عمران عليه السلام. ولعله أراد بذلك الإشارة إلى الاصطفاء الذي وقع عليه من الله بقوله عز وجل: ﴿إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي﴾ [الأعراف: ١٤٤].

و- السياحة:

ويذكر أن القدوة فيها هو عيسى ابن مريم عليه السلام.

ز- الفقر:

ولا شك أن أعظم الناس اتصافاً بهذا الوصف وهو الافتقار إلى الله وصدق اللجوء والاعتماد عليه هو خير البشر وسيد ولد آدم محمد ﷺ والشواهد على هذا كثيرة جداً في سيرته العظيمة [2].

والصوفي عند عبدالقادر الجيلاني هو من تحقق فيه معاني التصوف حتى صار أهلاً لأن يطلق عليه صوفي، وصفه: صوفي مأخوذ من المصافاة يعني عبد صافاه الله عز وجل، أو من كان صافياً من آفات النفس خالياً من مذموماتها، سالكاً لحميد مذاهبه، ملازماً للحقائق غير ساكن إلى أحد من الخلائق[3]، ويضع ضابطاً دقيقاً للصوفي فيقول: «الصوفي من صفا باطنه وظاهره بمتابعة كتاب الله وسنة رسوله ﷺ [4]، ويقول: الصوفي الصادق في تصوفه يصفو قلبه عما سوى

---

(١) فتوح الغيب للجيلاني، المقالة الخامسة والسبعون ص ١٦٦. (٢) الغنية (٢/ ١٦٠).
(٣) الفتح الرباني، المجلس التاسع والخمسون ص ٢٠٧.
(٤) الفتح الرباني للجيلاني، المجلس الخامس والعشرون ص ٩٠.

مولاه عز وجل وهذا شيء لا يجيء بتغيير الخرق وتعفير الوجوه وجمع الأكتاف ولقلقة اللسان وحكايات الصالحين وتحريك الأصابع بالتسبيح والتهليل وإنما يجيء بالصدق في طلب الحق عز وجل والزهد في الدنيا وإخراج الخلق من القلب وتجرده عما سوى مولاه عز وجل [1].

٢- العوامل التي أدت إلى تصوفه:

هناك عوامل عدة أثرت في تكوين شخصية الشيخ عبد القادر الجيلاني منها:

أ - نشأته في أحضان أسرة صالحة:

تتألف من والده الذي كان مشهوراً بالصلاح والعبادة وحسن السيرة، ووالدته فاطمة أم الخير بنت أبي عبد الله الصومعي المعروف بالتقوى والورع، وعمته التي كانت على جانب كبير من الخير والصلاح[2]. وقد وصف الشيخ عبدالقادر الجيلاني نفسه بقوله: أهّلني الله عز وجل ببركات متابعتي للرسول ﷺ وبري بوالدي ووالدتي رحمهما الله عز وجل، والدي زاهد في الدنيا مع قدرته عليها، ووالدتي وافقته على ذلك ورضيت بفعله، كانا من أهل الصلاح والديانة والشفقة على الخلق [3].

ب - اتصاله بالصوفية في بغداد:

فقد شكّل انتقاله إلى بغداد تطوراً جديداً في حياته لما واجهه من تغير كبير في البيئة العامة والحياة الخاصة حيث اختلط بالعلماء والفقهاء، ومشايخ الصوفية، وذلك في قاعات الدروس ومجالس العلم، ووقف على انتماءاتهم ونشاطاتهم وتأثر بذلك تأثراً كبيراً، وقد بدأ وقائع دراسته بدراسة الفقه الحنبلي وقراءة

---

(١) بهجة الأسرار ص ٨٨، وقلائد الجواهر ص ٣.
(٢) الفتح الرباني للجيلاني ، المجلس الواحد والستون ص ٢٢٤.
(٣) ذيل طبقة الحنابلة لابن رجب (١/ ٢٩٨).

القرآن الكريم ثم اتجه بعد ذلك إلى دراسة التصوف وعلومه وكان لصحبته للشيخ حماد الدباس الأثر الكبير في تحديد توجهاته الصوفية [١].

ج - عدم ارتياحه إلى سلوك بعض الفقهاء والوعاظ في زمانه:

والذين كانت تحكمهم الأهواء والمنافع الشخصية، وكانوا يثيرون الخلافات المذهبية ويغيرون انتماءاتهم طبقاً لمصالحهم الذاتية مما عمق قناعته بأن انحراف بعض الفقهاء وتكسبهم بدينهم هو نتيجة حتمية لفراغ قلوبهم من التقوى ومراقبة الله عز وجل، وجعله يسلك طريق التصوف لكن ثقافته الفقهية التي تستمد أصولها من الكتاب والسنة وهدي السلف الصالح كان لها الأثر الكبير في سلامته وعبوره ساحل النجاة وعدم تأثره بالفلسفات وعلوم الكلام [٢].

د - المكانة العالية والمنزلة الرفيعة التي كانت للتصوف في زمانه:

أثر الجهود الكبيرة التي بذلها الإمام الغزالي الذي اشتهر أمره وذاع صيته في بداية نشأة الشيخ عبد القادر، ويظهر تأثر الشيخ عبد القادر في كتابه «الغنية» حيث يظهر التشابه بينه وبين كتاب الإحياء للغزالي [٣]، وفي نظري أن الشيخ عبد القادر بسط تعاليم الغزالي ونقحها وزاد عليها وكوّن تياراً إسلاميًا متماسكاً وحول هذا التيار إلى عمل جماعي منظم منضبط، واستطاع تكوين صف قيادي مساعد له أسهموا في تشكيل التيار الإسلامي العريض.

٣ - موقفه من العلم والعمل:

اهتم الشيخ عبد القادر الجيلاني بجانبي العلم النظري والعملي وفي هذا المجال قال في نصيحة وجهها إلى بعض طلابه: إن أردت الفلاح فاصحب شيخاً عالماً بحكم الله عز وجل وعلمه يعلمك ويؤدبك ويعرفك الطريق إلى الله عز

---

(١) الشيخ عبد القادر الجيلاني ص ٥١٧.

(٢) (٣) المصدر نفسه ص ٥١٨.

وجل. ويقول: إذا لم تتبع الكتاب والسنة ولا الشيوخ العارفين بها فما تفلح أبداً[1]. وكان الجانب العلمي موضع عناية الشيخ عبد القادر الجيلاني فمن وصاياه التي كان يوجهها إلى طلابه ومريديه قوله: يا غلام تحفظ القرآن ولا تعمل به، تحفظ سنة رسوله ﷺ ولا تعمل بها. فلأي شيء تفعل ذلك؟ تأمر الناس وأنت لا تفعل وتنهاهم وأنت لاتنتهي! قال عز وجل: ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ [الصف: ٣]. لم تقولون وتخالفون؟ أما تستحون؟! لم تدّعون الإيمان ولا تؤمنون؟! [2].

ويؤكد على التشبيه السيء للعالم الذي لا يعمل بعلمه بقوله: مثّل الله العالم الذي لا يعمل بعلمه بالحمار فقال: ﴿كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا﴾ [الجمعة: ٥] والأسفار هي كتب العلم، هل ينتفع الحمار بكتب العلم ما يقع بيده منها سوى التعب والنصب.

من ازداد علمه ينبغي أن يزداد خوفه من ربّه عز وجل وطواعيته له. يا مدعي العلم أين بكاؤك من خوف الله عز وجل؟ أين حذرك وخوفك؟ أين اعترافك بذنوبك؟ أين مواصلتك للضياء بالظلام في طاعة الله عز وجل؟ أين تأديبك لنفسك ومجاهدتها في جانب الحق وعداوتها فيه؟ أنت همك القميص والعمامة والأكل والنكاح والدور والدكاكين والقعود مع الخلق والأنس بهم[3].

وكان اهتمام الشيخ عبدالقادر الجيلاني بالجوانب التربوية كبيراً إذ أن معظم توصياته لها علاقة مباشرة بالسلوك العملي التربوي ومن الأمثلة على ذلك تلك الخصال الحميدة التي وصّى بها والتي تحتاج إلى مجاهدة عظيمة حتى يمكن الإنسان الاتصاف[4] بها وهي:

(١) الفتح الرباني للجيلاني ، المجلس التاسع والثلاثون ص ١٢٧.
(٢) الفتح الرباني للجيلاني المجلس العاشر ص ٣٥. (٣) المصدر نفسه ص ٥١.
(٤) الشيخ عبد القادر الجيلاني ص ٥٢٠.

أ- ألا يحلف بالله عز وجل لا صادقاً ولا كاذباً ولا عامداً ولا ساهياً؛ لأنه إذا أحكم ذلك من نفسه وعود لسانه دفعه ذلك إلى ترك الحلف ساهياً وعامداً، فإذا اعتاد ذلك فتح الله عليه باباً من أنواره يعرف منفعة ذلك في قلبه ورفعة درجته وقوة في عزمه وفي صبره، والثناء عند الإخوان والكرامة عند الجيران حتى يأتم به من يعرفه ويهابه من يراه.

ب- أن يجتنب الكذب لا هازلاً ولا جاداً لأنه إذا فعل ذلك وأحكمه من نفسه واعتاده لسانه شرح الله تعالى به صدره، وصفا به علمه كأنه لا يعرف الكذب وإذا سمعه من غيره عاب ذلك عليه وعيره به في نفسه، وإن دعا له بزوال ذلك كان له ثواب.

ج- أن يحذر أن يَعِدَ أحداً شيئاً فيخلفه ويقطع العِدَةَ البتة، فإنه أقوى لأمره وأقصد لطريقه لأن الخلف من الكذب، فإذا فعل ذلك فُتح له باب السخاء ودرجة الحياء وأعطى مودة في الصادقين ورفعة عند الله جلّ ثناؤه.

د- أن يجتنب أن يلعن شيئاً من الخلق أو يؤذي ذرة فما فوقها، لأنها من أخلاق الأبرار والصديقين وله عاقبة حسنة في حفظ الله تعالى في الدنيا مع ما يُدَّخَر له من الدرجات، ويُستَنقَذ من مصارع الهلاك ويسلمه من الخلق ويرزقه رحمة العباد ويقربه منه عز وجل.

هـ- أن يجتنب الدعاء على أحد من الخلق وإن ظلمه فلا يقطعه بلسانه ولا يكافئه بقول ولا فعل، فإن هذه الخصلة ترفع صاحبها إلى الدرجات العلى، وإذا تأدب بها ينال منزلة شريفة في الدنيا والآخرة والمحبة والمودة في قلوب الخلق أجمعين من قريب وبعيد، وعزٌّ في الدنيا في قلوب المؤمنين.

و- ألا يقطع الشهادة على أحد من أهل القبلة بشرك ولا كفر ولا نفاق

فإنه أقرب للرحمة وأعلى في الدرجة وهي تمام السنة وأبعد عن الدخول في علم الله وأبعد من مقت الله، وأقرب إلى رضاء الله تعالى ورحمته، فإنه باب شريف كريم على الله تعالى يورث العبد الرحمة للخلق أجمعين [1].

ز- أن يجتنب النظر إلى المعاصي ويكف عنها جوارحه فإن ذلك من أسرع الأعمال ثواباً في القلب والجوارح في عاجل الدنيا مع ما يدخره الله له من خير الآخرة.

ح- أن يجتنب أن يجعل على أحد من الخلق مؤنة صغيرة ولا كبيرة بل يرفع مؤنته عن الخلق أجمعين مما احتاج إليه واستغنى عنه، فإن ذلك تمام عزة العابدين وشرف المتقين، وبه يقوى على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ويكون الخلق عنده أجمعين بمنزلة واحدة، فإذا كان كذلك نقله الله إلى الغنى واليقين والثقة به عز وجل ولا يرفع أحداً سواه ويكون الخلق عنده في الحق سواء، ويقطع بأن هذه أسباب عز المؤمنين وشرف المتقين وهو أقرب باب للإخلاص.

ط- ينبغي له أن يقطع طمعه من الآدميين ولا يطمع نفسه فيما في أيديهم فإنه العز الأكبر والغني الخاص والملك العظيم والفخر الجليل واليقين الصافي والتوكل الشافي الصريح، وهو باب من أبواب الثقة بالله عز وجل وهو باب من أبواب الزهد وبه ينال الورع ويكمل نسكه وهو من علامات المنقطعين إلى الله عز وجل.

ى- التواضع لأن به يُشيَّد محل العابد وتعلو منزلته، ويستكمل العز والرفعة عند الله سبحانه وعند الخلق، ويقدر على ما يريد من أمر الدنيا والآخرة. وهذه الخصلة أصل الخصال كلها وفرعها وكمالها، وبها يدرك العبد منازل الصالحين الراضين عن الله تعالى في السراء والضراء وهي كمال التقوى والتواضع والأ

---

(١) فتوح الغيب للجيلاني، المقالة الثامنة والسبعون ص ١١٧.

يلقى العبد أحدا من الناس إلا رأى له الفضل عليه ويقول: عسى أن يكون عند الله خيراً مني وأرفع درجة، فإن كان صغيراً قال: هذا لم يعص الله تعالى وأنا قد عصيت فلا شك أنه خير مني، وإن كان كبيراً قال: هذا عَبَدَ الله قبلي، وإن كان عالماً قال: هذا أعطي مالم أبلغ ونال مالم أنل وعلم ما جهلت وهو يعمل بعلمه، وإن كان جاهلاً قال: هذا عصى الله بجهل وأنا عصيته بعلم، ولا أدري بما يختم لي وبما يختم له. وإن كان كافراً [1] قال: لا أدري عسى أن يُسْلم فيختم له بخير العمل وعسى أن أكفر فيختم لي بسوء العمل [2].

* * *

(١) هذه العبارة بها نظر، لأن المسلم لا يمكن أن يرى أن الكافر أفضل منه أو أنه عند الله خير منه وأرفع درجة ولعلها خرجت من الشيخ مخرج المبالغة في التواضع.

(٢) فتوح الغيب للجيلاني، المقالة الثامنة والسبعون ص ١١٧.

الفصل السادس

آداب الشيخ والمريد والصحبة عند عبد القادر الجيلاني

١- واجبات المريد:

وضع الشيخ عبد القادر جملة من الواجبات التي يلتزم بها المريد المبتدئ يمكن حصرها فيما يلي:

أ- الاعتقاد الصحيح هو الأساس ويكون على عقيدة أهل السنة والجماعة والسلف الصالح.

ب- التمسك بالكتاب والسنة والعمل بهما أمراً ونهياً، أصلاً وفرعاً.

ج- الصدق والاجتهاد والإخلاص مع الله والوفاء بوعده وامتثال أمره والاستمرار في عبادته ومرضاته ومحبته وكل ما يؤدي إلى قربه.

د- الحذر من التقصير ومخالطة المقصرين أبناء القيل والقال، أعداء الأعمال والتكاليف المدعين للإسلام.

هـ- الاتصاف بصفة الكرم مع اليقين والاعتقاد أن الله لم يخلق ولياً بخيلاً.

و- الرضا بعدم الشهرة وخمول الذكر وترك الغرور وقتل الشهوات والرضا بالجوع والحرمان.

ز- الايثار وتقديم أقرانه عند الشيخ وفي مجالس العلم، وعند العلماء وأصحاب الفضل، فيجوع هو ويشبع الباقون، ويرضى بالذل لعز الجماعة وكرامتهم.

ح- أن يطلب من الله الستر ومغفرة ما سلف من الذنوب والعصمة فيما

بقي من العمر، والتوفيق لما يحبه الله سبحانه من الأعمال الصالحة والرضا عنه في حركاته وسكناته.

ط-أن يتحبب إلى الشيوخ وإلى جميع الصالحين وأن يعفو ويصفح عن زلات الغير وإساءات الناس إليه.

ى-أن يزهد في الملذات وأن يقاوم الرغبة في التوسع في الشهوات [(١)].

هذه هي مجمل الواجبات التي ينبغي على المريد أن يقوم بها وهي كفيلة بطبعه على الاستقامة وكريم الأخلاق ونبل الصفات [(٢)].

٢-آداب المريد مع الشيخ:

نظراً لأهمية صلة المريد بالشيخ فقد وضع الشيخ عبد القادر الجيلاني آداباً خاصة بالمريد تجاه شيخه الذي سيصحبه وهي:

أ-طاعته وعدم مخالفته في الظاهر أو الاعتراض عليه في الباطن مع الإكثار من قراءة ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ آمَنُوا﴾ [الحشر: ١٠]. وإذا ظهر من شيخه ما يكرهه في الشرع استخبر عن ذلك بضرب المثل والإشارة ولا يصرح به لئلا ينفر منه الشيخ بسببه.

ب-أن يستر ما قد يرى من عيوب الشيخ ويتهم نفسه فربما وقع ذلك لعدم فهمه مراد الشيخ، فإذا لم يجد للشيخ عذراً استغفر له ودعا بالتوفيق، ولا يخبر أحداً بما حدث منه ولا يعتقد أن الشيخ معصوم، وإنما حصل منه وهو في غفلة.

---

(١) الغنية للجيلاني (٢/ ١٦٣) بتصرف يسير.

(٢) الشيخ عبد القادر الجيلاني ص ٥٣٠.

ج- ملازمة الشيخ وعدم الانقطاع عنه وإذا حدث وأن عبس في وجهه أو غضب عليه أو أظهر إعراضًا فليفتش في نفسه وما عسى أن يكون قد وقع منه من سوء أدب أو تفريط بترك أمر الله أو فعل نهيه، وعليه أن يبادر إلى التوبة والاستغفار والعزم على عدم العودة إليه في المستقبل.

د- أن يلتزم بالآداب أمام شيخه وأن يتخير أفضل الأساليب عند التخاطب معه وأن يفعل معه ما يسره.

هـ- أن يحظى الشيخ بثقة مريده ويقينه بأنه أهل لأن يتلقى العلم والمعارف على يديه.

و- أن يحذر من مقارفة الذنوب لأنها تذهب ببركة العلم وتغير الحال كما حدث لآدم حينما أخرج من الجنة بسبب الذنب.

ز- الا يتكلم أمام شيخه إلاَّ للضرورة وأن يسكت إذا دارت مسألة عند شيخه ولو كان الجواب عنده بل ينتظر ما يقوله شيخه ولا يعارض [1].

والذي ننبه إليه أن تكون الطاعة في المعروف، فإذا أملى الشيخ ما يوافق الكتاب والسنة فلا شك في لزوم طاعته، أما إذا أملى الشيخ ما يخالف الكتاب والسنة فالواجب عدم طاعته هذا إذا كان الشيخ معروفاً بالدين والإيمان والاستقامة والصلاح، أما من عرف بالابتداع والفجور فيجب الإنكار عليه، وبيان بدعته وفجوره وتحذير الناس منه فضلاً عن أن يطاع فيما يأمر به [2].

٢- الآداب المتعلقة بالشيخ تجاه مريده:

لكي تتم عملية التربية السلوكية بنجاح ولأنها مسؤولية مشتركة تتم من طرفين هما المريد والشيخ، فإن الشيخ عبد القادر الجيلاني يضع آداباً وواجبات

(١) الغنية للجيلاني (٢/ ١٦٤).

(٢) الشيخ عبد القادر الجيلاني ص ٥٣١.

لابد أن يراعيها الشيخ أثناء تعامله مع المريد وهي:

أ- أن يقبله لله تعالى ويتعهده بالنصيحة والرفق واللين، فيكون معه كأبيه وأمه شفقة ورحمة وألاّ يحمله مالا يطيق، بل يتدرج معه حتى ينقله من موافقة الطبع إلى أوامر الشرع، ومن الرخص إلى العزائم.

ب- إذا علم منه صدق المجاهدة فلا يتهاون معه بل يلزمه بأوامر الله ويزجره عن نواهيه ابتغاء مرضاته سبحانه دون النظر إلى عائد.

ج- أن يثبته على الطريق وألاّ يعمل ما من شأنه التنفير لأن القصد هو الله، وما كان لله دام واتصل.

د- أن يراقب سلوكه فإذا رأى مخالفة للشرع وعظه وزجره وحذره من العودة ورغبه في التوبة إلى الله.

هـ- أن يحرص على تلقينه مبادئ الخير ويتجنب الفاحش من القول والخلق؛ لأنه محل القدوة والرحمة، يرعى مصالحه وكل مشاكله ويحمل عنه عبئه [(١)].

٤- آداب صحبة الإخوان:

بدأ الشيخ عبد القادر الجيلاني تلك الآداب ببيان آداب صحبة الإخوان وما ينبغي مراعاته في التعامل معهم، من ذلك:

أ- الإيثار والصفح عنهم والقيام معهم في شؤونهم وتقديم الخدمة الممكنة لهم.

ب- الا يرى له على أحد حقًا ولا يطالب أحداً بحق، بل يرى أن لكل

(١) الغنية للجيلاني (٢/١٦٨) بتصرف يسير.

منهم عليه حقاً ثم يجتهد في أداء حقوقهم.

ج- أن يظهر لهم الموافقة في جميع ما يقولون أو يفعلون - وهذا محمول بالطبع على قول الحق والفعل الحسن - وأن يتأول لهم ويعتذر عنهم.

د- أن يجتنب مجادلتهم ومخالفتهم ويتعامى عن عيوبهم فإن خالفه أحد منهم في شيء سلَّم له ما يقول في الظاهر وإن كان الأمر عنده بخلاف ما يقول[1]- وهذا أيضاً محمول على كون الخلاف في الأمور العادية والحياتية- أما إذا كان الخلاف في شيء من الشرع فلا بد من بيان الحق بدليله وعدم الموافقة على الباطل.

هـ- أن يجتنب فعل ما يكرهونه من حق أو أذية أو غيبة [2].

و- أن يكون المعيار لعلاقات الإنسان بالآخرين هو الحب في الله - عز وجل - والبغض فيه، يقول في هذا المعنى: إذا وجدت في قلبك بغض شخص أو حبّه فاعرض أعماله على الكتاب والسنة فإن كانت فيهما مبغوضة، فأبشر بموافقتك لله عز وجل ولرسوله، وإن كانت أعماله فيهما محبوبة وأنت تبغضه فاعلم بأنك صاحب هوى تبغضه بهواك ظالماً له ببغضك إياه وعاص لله عز وجل ولرسوله مخالف لهما، فتب إلى الله عز وجل من بغضك واسأله عز وجل محبة ذلك الشخص وغيره من احبائه وأوليائه وأصفيائه والصالحين من عباده، لتكون موافقاً له عز وجل.

وكذلك افعل بمن تحبه يعني اعرض أعماله على الكتاب والسنة فإن كانت محبوبة فيهما فأحبه، وإن كانت مبغوضة فأبغضه كيلا تحبه بهواك وقد أمرت

---

(١) الشيخ عبد القادر الجيلاني ص ٥٣٤، الغنية للجيلاني (٢/ ١٦٩).

(٢) الغنية (٢/ ١٦٩)، الشيخ عبد القادر الجيلاني ص ٥٣٥.

بمخالفة هواك، قال عز وجل: ﴿وَلاَ تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [ص: ٢٦][1]. وهكذا ومن خلال تلك الآداب فإننا نرى أن الشيخ عبد القادر الجيلاني لم يجعل من التصوف حالة انفصال عن المجتمع الذي يعيش فيه الإنسان لأن كماله وسمو أخلاقه لا تبرز بمجرد حصوله على المعارف والعلوم وإنما تظهر في حالة احتكاكه ومخالطته وتعامله بمن يعيش معهم في المجتمع بمختلف فئاته وطبقاته، وهو المحك الذي يظهر الإنسان على حقيقته ولذا كان لا بد من مراعاة تلك الآداب حتى تنصلح الأحوال وتتقارب القلوب [2].

* * *

(١) فتوح الغيب للجيلاني، المقالة الحادية والثلاثون ص ٧٥.

(٢) الشيخ عبد القادر الجيلاني ص ٥٣٥ ، ٥٣٦.

الفصل السابع

الأحوال والمقامات

١- التوبة:

قال ابن عباس رضي الله عنهما: التوبة النصوح هي الندم بالقلب، والاستغفار باللسان والإقلاع بالبدن والإضمار على ألا يعود [١]، كان الشيخ عبد القادر الجيلاني يركز عليها ويهتم بشأنها؛ قال العلامة أبو الحسن الندوي: ظهر في بغداد رجل قوي الشخصية، قوي الإيمان قوي العلم، قوي الدعوى، قوي التأثير هو الشيخ عبد القادر الجيلاني فجدّد دعوة الإيمان والإسلام الحقيقي والعبودية الخالصة وحارب النفاق وفتح باب البيعة والتوبة على مصراعيه يدخل منه المسلمون يجددون العهد والميثاق مع الله تعالى [٢]. والشيخ عبد القادر الجيلاني يعتبر التوبة باب الدخول على الله سبحانه لنيل رضوانه في الدنيا والآخرة فينبغي اغتنامها وعدم تفويت فرصتها، يقول: اغتنموا باب التوبة وادخلوا ما دام مفتوحاً لكم [٣]، ويبين أن المهم ليس التوبة فحسب ولكن المهم هو الاستمرار والثبات عليها فيقول: تب واثبت على توبتك فليس الشأن في توبتك.. الشأن في ثبوتك عليها، ليس الشأن في غرسك.. الشأن في ثبوته وتغصينه وثمرته [٤]. وقد جعلها بمنزلة الماء الذي تزول به نجاسة الذنوب وقذارة المعاصي إذ يقول: يا غلام لا تيأس من رحمة الله بمعصية ارتكبتها بل اغسل نجاسة ثوب دينك بماء التوبة والثبات عليها والإخلاص فيها [٥].

---

(١) التعريفات للجرجاني ص ٩٥.

(٢) رجال الفكر والدعوة نقلاً عن الشيخ عبد القادر ص ٥٩٧.

(٣) الفتح الرباني للجيلاني، المجلس الرابع ص ١٨. (٤) الشيخ عبد القادر الجيلاني ص ٥٩٧.

(٥) الفتح الرباني ، المجلس الثالث عشر ص ٤٨.

وعن التائبين يصنف الشيخ عبد القادر الناس في التوبة إلى ثلاثة أصناف: توبة العوام وتوبة الخواص وتوبة خاص الخاص ويجعل لكل صنف منهم توبة تخصه فيقول: توبة العوام من الذنوب وتوبة الخواص من الغفلة، وتوبة خاص الخاص من ركون القلب إلى ما سوى الله عز وجل، ثم يوضح معنى قوله تعالى: ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [النور: ٣١] بأن هذا خطاب للعموم بالتوبة وأن حقيقة التوبة في اللغة الرجوع، يقال: تاب فلان من كذا أي رجع عنه، فالتوبة هي الرجوع عما كان مذموماً في الشرع إلى ما هو محمود في الشرع، والعلم بأن الذنوب والمعاصي مهلكات مبعدات من الله عز وجل ومن جنته، وتركها مقرب إلى الله عز وجل وجنته فكأنه عز وجل يقول: ارجعوا إليَّ من هوى نفوسكم ووقوفكم مع شهواتكم عسى أن تظفروا ببغيتكم عندي في المعاد وتبقوا في نعيمي في دار البقاء والقرار وتفلحوا وتفوزوا وتنجوا وتدخلوا رحمتي، الجنة العليا المعدة للأبرار[(١)].

كما يقرر الشيخ عبد القادر الجيلاني أن التوبة من سائر الذنوب واجبة بإجماع الأمة وأنها تكون من جميع الذنوب صغيرها وكبيرها [(٢)].

ثم يعرف الكبائر بأنها: ما توعَّد الله عليه بالنار أو ما أوجب عليه الحد في الدنيا وأن بعض العلماء حصرها في سبع عشرة كبيرة: أربع في القلب؛ وهي الشرك بالله والإصرار على المعصية والقنوط من رحمة الله والأمن من مكر الله، وأربع في اللسان: وهي شهادة الزور وقذف المحصنات واليمين الغموس والسحر. وثلاث في البطن وهي: شرب الخمر وأكل مال اليتيم وأكل الربا. واثنتان في الفرج وهما: الزنا واللواط. واثنتان في اليدين، وهما: القتل والسرقة. وواحدة في الرجلين وهي الفرار

من الزحف، وواحدة في جميع البدن: وهي عقوق الوالدين[1]. وتحدث عن صدق التوبة: وصحتها ووضع لها شروط ثلاثة:

أولها: الندم على ما عمل من المخالفات.

وثانيها: الإقلاع وترك الزلات في جميع الحالات والساعات.

وثالثها: العزم على ألا يعود إلى ما اقترف من المعاصي، والخطيئات [2].

ووضع الشيخ عبد القادر الجيلاني للتوبة معياراً دقيقاً هو: توجّع القلب عند علمه بفوات محبوبه فتطول حسراته وأحزانه وبكاؤه ونحيبه وانسكاب عبراته فيعزم على ألاّ يعود إلى مثل ذلك لما تحقق عنده من شؤم ذلك [3]. ويجعل أيضاً مقياساً آخر يمكن بواسطته معرفة التوبة الصادقة وهو أربعة أشياء:

- أن يملك لسانه من الفضول والغيبة والنميمة والكذب.
- الاّ يرى لأحد في قلبه حسداً ولا عداوة.
- أن يفارق إخوان السوء.
- أن يكون مستعداً للموت نادماً مستغفراً لما سلف من ذنوبه مجتهداً في طاعة ربه [4]. ويرى الشيخ عبد القادر الجيلاني أن التوبة على وجهين:

أحدهما: في حق العباد بعضهم تجاه بعض، وهذا لا يتحقق إلاّ برد المظالم والتحلل من الحقوق بإعادتها إلى أصحابها.

والثاني: يتعلق بحق الله تعالى فتكون التوبة منه بالاستغفار الدائم باللسان والندم بالقلب والإضمار على ألاّ يعود إليه في المستقبل [5]. هذه هي التوبة عند الشيخ عبد القادر الجيلاني ونظرته إليها

---

(١) الغنية للجيلاني (١/ ٢١٧).

(٢) (٣) الغنية للجيلاني (١/ ١٢٢).

(٤) الشيخ عبد القادر الجيلاني ص ٦٠٠.

(٥) الغنية للجيلاني (١/ ١٢٦).

وتوجيهاته للتائبين، وقد أوردها بعبارات جميلة وترقيقات بديعة تدل على حساسية مرهفة لمعنى التوبة وموقف العبد منها [1].

٢- الزهد:

والشيخ عبد القادر الجيلاني يفرق بين الزاهد الحقيقي والمتزهد الصوري فيقول: المتزهد يخرج الدنيا من يديه، والزاهد المتحقق في زهده يخرجها من قلبه[2] ويقول: الصادق في زهده تجيء إليه أقسامه فيناولها ويلبس ظاهره بها وقلبه مملوء من الزهد فيها وفي غيرها[3]. ويقول: وفي الناس من تكون الدنيا بيده ولا يحبها، يملكها ولا تملكه، تحبه ولا يحبها، تعدو خلفه ولا يعدو خلفها، يستخدمها ولا تستخدمه، يفرقها ولا تفرقه، قد صلح قلبه لله عز وجل فلا تقدر الدنيا تفسده فيتصرف فيها ولا تتصرف فيه[4]. ويقول: المؤمن له نية صالحة في جميع تصرفاته لا يعمل في الدنيا للدنيا، يبني في الدنيا للآخرة، يعمر المساجد والقناطر والمدارس والربط ويهذب طرق المسلمين، وإن بنى غير هذا فللعيال والأرامل والفقراء وما لا بدّ له منه، يفعل ذلك حتى يبنى له في الآخرة[5].

ويبين الشيخ عبد القادر أن الزهد ليس أمراً سهلاً يمكن الاتصاف به دون تعب أو معاناة، كما أنه ليس في قدرة كل واحد أن يكون زاهداً، لأن الزهد على حد تعبير الجيلاني: منة صالحة وإلاّ فما يقدر أحد أن يزهد في قسمه. المؤمن يستريح من ثقل الحرص لا يشره ولا يستعجل. زهد في الأشياء قلبه وأعرض عنها سره واشتغل بما أمر به، وعلم أن قسمه لا يفوته فلم يطلبه، ترك

---

(١) الشيخ عبد القادر الجيلاني ص ٦٠٠.

(٢) الفتح الرباني للجيلاني ، المجلس الثلاثون ص ١٠٦.

(٣) المصدر السابق، المجلس الخامس والعشرون ص ٨٩.

(٤) المصدر نفسه، المجلس الرابع والثلاثون ص ١١٣.

(٥) المصدر نفسه ، المجلس السادس عشر ص ٥٩.

الأقسام تعدو خلفه وتدل وتسأله قبولها[1]. وقال: يا غلام هذا الزهد ليس صنعة تتعلمها وليس هو شيئاً تأخذه بيدك ترميه بل هو خطوات أولها النظر في وجه الدنيا فتراها كما هي على صورتها عند من تقدم من الأنبياء والرسل[2].

والشيخ عبد القادر الجيلاني يربط بين العلم والزهد، ويرى أنه لا بد من تلازمهما للوصول إلى الله عز وجل، وهذا واضح من قوله: ما وصل من وصل إلاّ بالعلم والزهد في الدنيا والإعراض عنها بالقلب والقالب [3]. وقال: من صح زهده في الخلق صحت رغبتهم فيه وانتفعوا بكلامه والنظر فيه [4].

والشيخ عبد القادر الجيلاني على مذهب الإمام أحمد بن حنبل، الذي قال في الزهد: الزهد على ثلاثة أوجه: الأول: ترك الحرام وهو زهد العوام. والثاني: ترك الفضول من الحلال وهو زهد الخواص. الثالث: ترك ما يشغل عن الله وهو زهد العارفين. وعلق ابن القيم على كلام الإمام أحمد فقال: وهذا الكلام من الإمام أحمد يأتي على جميع ما تقدم من كلام المشايخ مع زيادة تفصيله وتبيين درجاته وهو من أجمع الكلام وهو يدل على أنه ﷺ من هذا العلم بالمحل الأعلى، وقد شهد الشافعي رحمه الله بإمامته في ثمانية أشياء أحدها الزهد [5]. وهكذا يتبين موافقة الشيخ عبد القادر الجيلاني لأهل السنة والجماعة في مفهوم الزهد [6].

٣- التوكل:

تناول الشيخ عبد القادر الجيلاني مسألة التوكل وتعرض لأربع مسائل.

- **الأصل في مشروعيته وتعريف حقيقته**، فقال: الأصل فيه قوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ [الطلاق: ٣] وقوله عز وجل: ﴿وَعَلَى اللهِ فَتَوَكَّلُوا

---

(١) المصدر نفسه، المجلس الثامن والعشرون ص ٩٨.
(٢) الفتح الرباني للجيلاني ، المجلس الثلاثون ص ١٠٧. (٣) المصدر نفسه ص ١٠٦.
(٤) المصدر نفسه، المجلس الثاني والستون ص ٢٣٢. (٥) مدارج السالكين لابن القيم (٢/ ١٢).
(٦) الشيخ عبد القادر الجيلاني ص ٦٠٦.

إن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [المائدة: ٢٣]. وحقيقته تفويض الأمور إلى الله عز وجل والتنقي من ظلمات الاختيار والتدبير والترقي إلى ساحات شهود الأحكام والتقدير، فيقطع العبد ألاّ تبديل للقسمة، فما قسم له لا يفوته وما لم يقدّر له لا يناله فيسكن قلبه إلى ذلك ويطمئن إلى وعد مولاه [(١)].

المسألة الثانية: أقسام التوكل ودرجاته: يرى الشيخ عبد القادر الجيلاني أن التوكل ينقسم إلى ثلاث درجات: التوكل ثم التسليم ثم التفويض، فالمتوكل يسكن إلى وعد ربه وصاحب التسليم يكتفي بعلمه وصاحب التفويض يرضى بحكمه[(٢)]. ولكن ابن القيم يرى أن التوكل ينقسم إلى سبع درجات:

الأولى: معرفة الرب وصفاته من قدرته وكفايته وقيوميته وانتهاء الأمور إلى علمه وصدورها عن مشيئته وقدرته وهي أول درجة يضع بها العبد قدمه في مقام التوكل.

الثانية: إثبات الأسباب والمسببات.

الثالثة: رسوخ القلب في مقام توحيد المتوكل فإنه لا يستقيم توكل العبد حتى يصح له توحيده، بل حقيقة التوكل توحيد القلب، فما دامت فيه علائق الشرك فتوكل معلول مدخول، وعلى قدر تجريد التوحيد تكون صحة التوكل، فإن العبد متى التفت إلى غير الله أخذ ذلك الالتفات شعبة من شعب قلبه فنقص من توكله على الله بقدر ذهاب تلك الشعبة. ومن هنا ظن من ظن أن التوكل لا يصح إلاّ برفض الأسباب وهذا حق لكن رفضها عن القلب لا عن الجوارح.

---

(١) الغنية للجيلاني (٢/ ١٨٩).

(٢) المصدر نفسه (٢/ ١٨٩).

الرابعة: اعتماد القلب على الله واستناده وسكونه إليه بحيث لا يبقى فيه اضطراب من تشويش الأسباب ولا سكون إليها، علامة هذا ألا يبالي بإقبالها وإدبارها ولا يضطرب قلبه عند إدبار ما يحب وإقبال ما يكره منها، لأن اعتماده على الله وسكونه إليه، ومثل حاله كحال الطفل الرضيع في اعتماده وسكونه وطمأنيته بثدي أمه لا يعرف غيره وليس في قلبه التفات إلى غيره. كذلك المتوكل لا يأوي إلاّ إلى ربه سبحانه.

الخامسة: حسن الظن بالله عز وجل، فعلى قدر حسن ظنك بربك ورجائك له يكون توكلك عليه، ولذلك فسّر بعضهم التوكل بحسن الظن بالله، والتحقيق أن حسن الظن بالله يدعو إلى التوكل عليه، إذ لا يتصور التوكل على من ساء ظنك به ولا التوكل على من لا ترجوه.

السادسة: استسلام القلب له وانجذاب دواعيه كلها إليه، ولهذا فسّره من قال: أن يكون العبد بين يدي الله كالميت بين يدي الغاسل، يقلبه كيف أراد لا يكون له حركة ولا تدبير.

السابعة: التفويض وهو روح التوكل ولبُّه وحقيقته وهو إلقاء أموره كلها إلى الله وإنزالها به طلباً، واختياراً لا كرهاً واضطراراً، بل كتفويض الابن العاجز الضعيف كل أموره إلى أبيه العالم بشفقته عليه وتمام كفايته وحسن تدبيره، فهو يرى أن تدبير أبيه له خير من تدبيره لنفسه فلا يجد له أصلح ولا أرفق من تفويض أموره كلها إلى أبيه [1].

---

(١) مدارج السالكين (٢/ ١١٢).

المسألة الثالثة: ثمرات التوكل: ويرى الشيخ عبد القادر الجيلاني أن للتوكل ثمرات فقد قال: من أحب القوة في دين الله عز وجل فليتوكل على الله عز وجل؛ لأن التوكل يصحح القلب ويقويه ويهذبه ويهديه ويريه العجائب، لا تتوكل على درهمك وديناركَ وأسبابك، فإن ذلك يعجزك ويضعفك، وتوكل على الله عز وجل فإنه يقويك ويعينك ويلطف بك ويفتح لك من حيث لا تحتسب [(1)].

وهذا ما أكَّده شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - وهو يوضح معنى ما نقل عن الشيخ عبد القادر الجيلاني من أنه رُئي في المنام وهو يقول إخباراً عن الحق سبحانه: من جاءنا تلقيناه من البعيد، ومن تصرف بحولنا ألنّا له الحديد، ومن اتبع مرادنا أردنا ما يريد، ومن ترك من أجلنا أعطيناه فوق المزيد. فقال فالأوليان: العبادة والاستعانة، والآخرتان الطاعة والمعصية. فالذهاب إلى الله هي عبادته وحده كما قال تعالى في الحديث القدسي: **من تقرب إليَّ شبراً تقربت إليه ذراعاً، ومن تقرب إليَّ ذراعاً تقربت إليه باعاً ومن أتاني يمشي أتيته هرولة** [(2)] والتقرب بحوله هو الاستعانة والتوكل عليه فإنه لا حول ولا قوة إلاَّ بالله. وفي الأثر: من سره أن يكون أقوى الناس فليتوكل على الله [(3)].

وعن سعيد بن جبير قال: التوكل جماع الإيمان [(4)]، وقال تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ [الطلاق: ٣].. وقوله: ومن اتبع مرادنا يعني المراد الشرعي، كقوله تعالى: ﴿يُرِيدُ اللهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلاَ يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥] وقال تعالى: ﴿يُرِيدُ اللهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ﴾ [النساء: ٢٨] وقوله تعالى: ﴿مَا يُرِيدُ اللهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ﴾ [المائدة: ٦].. وفي الحديث الصحيح:

---

(١) الفتح الرباني للجيلاني ، المجلس الثاني والأربعون ص ١٣٤.

(٢) البخاري رقم ٧٥٣٦ مسلم رقم ٢٦٧٥.

(٣) الشيخ عبد القادر الجيلاني ص ٦١٢.

(٤) (٥) السنة، عبد الله بن أحمد رقم ٧٧٦.

لئن سألني لأعطينه ولئن استعاذني لأعيذنه [1]. وقال تعالى: ﴿وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِ﴾ [الشورى:٢٦] وقوله: ومن ترك من أجلنا أعطيناه فوق المزيد يعني: ترك ما كره الله من المحرم والمكروه لأجل الله؛ رجاءً ومحبة وخشية أعطيناه فوق المزيد لأن هذا مقام الصبر [2]، وقد قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠].

المسألة الرابعة: الأسباب: بيّن الشيخ عبد القادر الجيلاني اعتقاده حولها والمتضمن ضرورة الأخذ بها مع عدم الاعتماد عليها فقال: اعتقاد المتبعين لكتاب الله عز وجل وسنة رسوله ﷺ أن السيف لا يقطع بطبعه بل الله عز وجل يقطع به، وأن النار لا تحرق بطبعها بل الله عز وجل المحرق بها، وأن الطعام لا يشبع بطبعه بل الله عز وجل يشبع به، وأن الماء لا يروي بطبعه بل الله عز وجل المروي به. وهكذا جميع الأسباب على اختلاف أجناسها الله عز وجل المتصرف فيها وبها وهي آلة بين يديه يفعل ما يشاء [3]، وهذا لا يعني دعوته إلى ترك الأسباب أو أن هناك تعارضاً بين التوكل والأخذ بالأسباب، بل إن التوكل الصحيح في مفهوم الشيخ الجيلاني هو الأخذ بالسبب والتوكل على مسبب الأسباب إذ يقول في هذا الصدد: أعط نفسك في بحر التوكل فتجمع بين السبب والمسبب [4].

٤- الشكر:

تحدث الشيخ عبد القادر الجيلاني عن الشكر من خلال ثلاث مسائل:

الأولى: حقيقة الشكر: فقال رحمه الله: وحقيقة الشكر عند أهل التحقيق الاعتراف بنعمة المنعم على وجه الخضوع [5].

(١) السنة، عبد الله بن أحمد رقم ٧٧٦.
(٢) البخاري رقم ٧٥٣٦.
(٣) فتاوى ابن تيمية (١٠/ ٥٤٩)، الشيخ عبد القادر الجيلاني ص ٦١٣.
(٤) الشيخ عبد القادر الجيلاني ص ١٦٧.
(٥) الغنية للجيلاني (٢/ ١٩٣).

وأما أقسامه: فإنه - رحمه الله - قد قسم الشكر إلى ثلاثة أقسام فقال: الشكر ينقسم أقساماً إلى شكر باللسان وهو اعترافه بالنعمة مبعث الاستكانة، وشكر بالبدن والأركان وهو اتصاف بالوفاء والخدمة، وشكر بالقلب وهو اعتكاف على بساط الشعور بإدامة حفظ الحرمة [1]. وفي موضع آخر يصف الشيخ عبد القادر الجيلاني كيفية الشكر فيقول: أما كيفية الشكر فيكون باللسان بالاعتراف بالنعمة وأنها من عند الله عز وجل وترك الإضافة إلى الخلق لا إلى نفسك وحولك وقوتك وكسبك ولا إلى غيرك من الذين جرت على أيديهم لأنك وإياهم أسباب وآلات وأداة لها. وأن قاسمها ومجريها وموجودها والسبب لها هو الله عز وجل، والقاسم هو الله والمجري هو الله فهو أحق بالشكر من غيره. وأما الشكر بالقلب فبالاعتقاد الدائم والعقد الوثيق الشديد المبرم أن جميع مابك من النعم والمنافع واللذات في الظاهر والباطن في حركاتك وسكناتك من الله عز وجل لا من غيره، ويكون شكرك بلسانك معبراً عما في قلبك. وأما شكر الجوارح: فبأن تحركها وتستعملها في طاعة الله عز وجل دون غيره من الخلق فلا تجب أحداً من الخلق فيما فيه إعراض عن الله تعالى، وهذا يعم النفس والهوى والإرادة والأماني وسائر الخليقة بحيث تجعل طاعة الله أصلاً ومتبوعاً وإماماً وما عداها فرعاً وتابعاً ومأموماً [2].

وأما أصناف الشاكرين فقد جعلهم ثلاثة أصناف:

الأول: من وصفهم بالعالمين وهم السواد الأعظم من العباد وشكرهم يكون من جملة أقوالهم.

والثاني: من وصفهم بالعابدين وهم المؤمنون على وجه العموم والمباشرون للعبادات المفروضة عليهم وشكرهم يكون نوعاً من أفعالهم.

(١) الغنية للجيلاني (٢/ ١٩٤).
(٢) فتوح الغيب للجيلاني ص ١٣٤.

والثالث: من وصفهم بالعارفين والمقربين وشكرهم باستقامتهم لله عز وجل في سائر أحوالهم، واعتقادهم أن جميع ما هم فيه من الخير وما يظهر منهم من الطاعة والعبودية والذكر لله عز وجل بتوفيقه سبحانه [1].

٥- الصبر:

تحدث الشيخ عبد القادر الجيلاني عن الصبر، فقال: الأصل في مشروعية الصبر قوله تعالى: ﴿اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ٢٠٠] وقوله تعالى: ﴿وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلاَّ بِاللَّهِ﴾ [النحل: ١٢٧] وقوله ﷺ: «إنما الصبر عند الصدمة الأولى» [2]، وأما أنواع الصبر فقد ذكر الشيخ عبد القادر أنه على ثلاثة أضرب:

الأول: صبر لله عز وجل وهو على أداء أمره وانتهاء نهيه.

الثاني: صبر مع الله وهو الصبر على جريان قضائه وأفعاله فيك من سائر الشدائد والبلايا.

الثالث: صبر على الله وهو الصبر على ما وعد من الرزق والفرج والكفاية والثواب في الدار الآخرة [3]. وقال عن أصناف الصابرين بأنهم: ثلاثة أصناف: متصبر وصابر وصبار [4]. وأخيراً فإن الشيخ عبد القادر الجيلاني عند تمييزه للصبر يرى أنه على قسمين:

أحدهما: صبر على ما هو كسب من فعل أوامر الله وترك نواهيه.

والثاني: صبر على ما ليس بكسب له مما يقدر الله عليه من قضاء فيه مشقة وألم

---

(١) الغنية للجيلاني (٢/ ١٩٤)، الشيخ عبد القادر الجيلاني ص ٦٢١.
(٢) البخاري رقم ١٧٠٢، مسلم رقم ٩٢٦. (٣) (٤) الغنية (٢/ ١٩٥).

فيصبر على ذلك [1]. وبالجملة فإن معاني الصبر تكاد تكون محصورة في الصبر على أداء الواجبات وترك المنهيات والرضا بالمقدورات وهو واضح في كلام الشيخ عبد القادر الجيلاني -رحمه الله- [2].

٦- الرضـــا:

قال الشيخ عبد القادر الجيلاني:فأما المؤمن فهو حقيق أن يرضى بما قسم الله تعالى له وقضاء الله - عز وجل - خير من قضاء المرء لنفسه، وما قضاء الله لك يا ابن آدم فيما تكره خير لك مما قضى الله عز وجل لك فيما تحب، فاتق الله تعالى وارض بقضائه قال تعالى: ﴿وَعَسَى أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:٢١٦] يعني ما فيه صلاح دينكم ودنياكم، فالله عز وجل طوى عن الخلق مصالحهم وكلفهم عبوديته من أداء الأوامر وانتهاء المناهي والتسليم في المقدور والرضا بالقضاء فيما لهم وعليهم في الجملة، واستأثر هو عز وجل بالعواقب والمصالح فينبغي للعبد أن يديم الطاعة لمولاه ويرضى بما قسم الله له ولا يتهمه[3].

وقال: واعلم أن تعب كل واحد من الخلق على قدر منازعته للقدر والمقدور وموافقته لهواه وترك رضاه بالقضاء، فكل من رضي بالقضاء استراح وكل من لم يرضى به طالت شقوته وتعبه ولا ينال من الدنيا إلاَّ بما قسم له [4].

٧- الصـــدق:

والأصل فيه عند الشيخ عبد القادر الجيلاني قوله عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ [التوبة: ١١٩].وما روي عن عبد الله بن مسعود

(١) الغنية (٢/ ١٩٥).
(٢) الشيخ عبد القادر الجيلاني ص ٦٢٥.
(٣) الغنية للجيلاني (٢/ ١٩٧).
(٤) المصدر نفسه (٢/ ١٩٧).

ﷺ عن النبي ﷺ أنه قال: عليكم بالصدق فإن الصدق يهدي إلى البر، وإن البر يهدي إلى الجنة وإن الرجل ليصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقاً. وإيّاكم والكذب فإن الكذب يهدي إلى الفجور، والفجور يهدي إلى النار وإن الرجل ليكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذاباً[1]. والشيخ عبد القادر يحدثنا عن صدقه في أحلك الظروف، فقد كان مثالاً للصدق منذ شبابه، وهذه القصة تبين مدى صدقه حيث قال: عندما استأذنت والدتي للسفر إلى بغداد طلباً للعلم، سلمتني أربعين ديناراً وخاطتها تحت إبط قميصي وأوصتني بالصدق، وفي أثناء سفرنا خرج علينا ستون فارساً فأخذوا القافلة ولم يتعرض لي أحد فاجتازني أحدهم وقال لي: كم معك يا فقير؟ فقلت: أربعون ديناراً فقال: وأين هي؟ فقلت: مخاطة في قميصي تحت إبطي. فظنني أستهزئ به فتركني وانصرف. ومرّ بي آخر فقال لي: مثل ما قال الأول؛ فأجبته كما أجبت الأول فتركني وانصرف وتوافيا عند مُقَدَّمِهم فأخبراه بما سمعاه مني فقال: عليَّ به فأُتِيَ بي إليه، وإذا هم على تَلٍّ يقتسمون أموال القافلة فقال لي: ما معك؟ قلت: أربعون ديناراً. فقال: وأين هي؟ قلت: مخاطة في قميصي تحت إبطي، فأمر به فَفُتِقَ فوجد فيه الأربعين ديناراً. فقال: ما حملك على الاعتراف؟ قلت: إن أمي عاهدتني على الصدق وإني لا أخون عهدها. فبكى المقدم. وقال: أنت لم تَخُنْ عهد أمك وأنا لي كذا وكذا سنة أخون عهد ربي، فتاب على يديَّ. فقال له أصحابه: أنت كنت مقدمنا في قطع الطريق وأنت الآن مقدمنا في التوبة، فتابوا كلهم على يدي وردوا على القافلة ما أخذوا منهم[2].

وللصدق عند الشيخ عبد القادر الجيلاني منزلة عالية فهو عماد الأمر وفي

---

(1) البخاري رقم ٦٠٩٤، مسلم رقم ٢٦٠٧، الشيخ عبد القادر الجيلاني ص ٦٣٣.

(2) الشيخ عبد القادر الجيلاني ص ٦٤.

ذلك يقول: واعلم بأن الصدق عماد الأمر وبه تمامه وفيه نظامه، وهو ثاني درجة النبوة وهو قوله عز وجل: ﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء: ٦٩]. وقد فرّق الشيخ عبد القادر الجيلاني بين الصادق والصديق بقوله: والصادق هو الاسم اللازم من الصدق، والصديق هو المبالغة منه وهو من تكرر فيه الصدق فصار دأبه وسجيته وصار الصدق غالبه. فالصدق استواء السر والعلانية، والصادق هو الذي صدق في أقواله، والصديق من صدق في أقواله وجميع أفعاله وأحواله[1].

وهكذا يتبين اهتمام الشيخ عبد القادر وتأكيده على أهمية التخلق والاتصاف بهذه الصفات الحميدة التي تكسب العبد سعادة الدنيا وفلاح الآخرة[2].

* * *

(١) الغنية (٢/ ٢٠٠).

(٢) الشيخ عبد القادر الجيلاني ص ٦٣٤.

الفصل الثامن

تاسيس الطريقة القادرية

تنسب الطريقة القادرية إلى الشيخ عبد القادر الجيلاني الذي يعتبر المؤسس الأول لها خصوصاً بشكلها الجماعي والمنظم والقائم على جمع المريدين وربطهم بمشايخ الطريقة لتأديبهم وتربيتهم، حيث كان التصوف في السابق يقوم على أساس فردي لا أثر له للتجمع فيه، ولم يظهر في شكل منظم تحت طريقه واحدة إلا في عهد الشيخ عبد القادر الجيلاني والمتبع لظهور الطرق الأخرى يرى أنها جميعها إنما ظهرت بعد الشيخ عبد القادر الجيلاني[1]، والمطلع على سيرة الشيخ عبد القادر يرى في توجيهاته ووصاياه التي وصّى بها أتباعه الحرص على التمسك بالكتاب والسنة والالتزام بالأخلاق الحميدة وفيما يلي عرض لأبرز معالم الجانب النظري لهذه الطريقة:

١- التاكيد على التمسك بالكتاب والسنة:

يقول رحمه الله وهو يوجه وصيته إلى ولده عبد الرزاق: أوصيك بتقوى الله وطاعته ولزوم الشرع وحفظ حدوده، وتعلم يا ولدي -وفقنا الله وإياك والمسلمين- أن طريقتنا هذه مبنية على الكتاب والسنة وسلامة الصدر وسخاء اليد وبذل الندى وكف الجفا وحمل الأذى والصفح عن عثرات الإخوان [2]، ويقول في موضع آخر: أدخل الظلمة بالمصباح وهو كتاب الله وسنة رسولهﷺ؛ فإن خطر خاطر[3] أو جُدّ الهام فاعرضه على الكتاب والسنة، فإن وجدت فيهما تحريم ذلك مثل أن تلهم الزنا والرياء ومخالطة أهل الفسق والفجور وغير ذلك

(١) الشيخ عبد القادر الجيلاني ص ٦٣٦، ٦٣٧.
(٢) المصدر نفسه ص ٦٣٩.
(٣) المصدر نفسه ص ٦٤٠.

من المعاصي فادفعه عنـك واهجره ولا تقبلـه ولا تعمـل بـه واقطـع بأنـه مـن الشيطان اللعين [١].

ومـن تركيـز الشيخ الجيلانـي علـى أهميـة التمسـك بالكتـاب والسـنة أن جعلهما المقياس في ربط العلاقات الشخصـية بـالآخرين بقولـه: إذا وجـدت في نفسـك بغض شخص أو حبه فاعرضـه علـى الكتـاب والسـنة ولا تتبـع الهـوى فيضلك عن سبيل الله [٢].

٢- خلو طريقته من الأفكار والفلسفات التي كانت سائدة في عصره

نتيجة ترجمة المعارف اليونانية وتأثيرها على العقول والأفهام، حتى وقـع في حبائلها كثير من المتصوفة فاسـتخدموا ألفاظهـا ومصـطلحاتها مثـل الهيـولى[٣]، والعرض، والجوهر [٤].

٣- تركيزه على الاهتمام بالجوانب العملية

وتجنب الإغراق في الأمور النظرية والمقدمات الجدلية العقيمة دليل ذلك مـا طبقه في حياته ومارَبى عليه أتباعه وما وضعه من أصـول لطريقتـه الـتي تعتمـد على سبعة أصول هي: المجاهدة، التوكل، حسن الخلق، الشكر، الصدق، الرضا، الصبر[٥]. وقد تحدثنا عن هذه الأصول بالتفصيل في مبحث المقامات والأحوال.

٤- وضعه لمجموعة من الآداب والتعاليم

التي يجب أن يتعامل بها المنتسب لطريقته سواء مع النفس أو مع الشـيخ أو

---

(١) (٢) فتوح الغيب للجيلاني ص ٦٤٠.

(٣) الهيولى: لفظ يوناني بمعنى الأصل والمادة وهو جوهر في الجسم.

(٤) الجوهر: ماهية إذا وجدت في الأعيان كانت لا في موضوع وهو مختصر في خمسة أشياء هيـولى وصـورة وجسم ونفس وعقل .

(٥) الغنية للجيلاني (٢/ ١٨٢).

مع الناس، وقد تكلمنا عن ذلك.

٥- تأكيده على وجوب تعظيم أوامر الله سبحانه وامتثالها

والبعد عن نواهيه واجتنابها، والرضا بأقدار الله والاستسلام لها فيقول: رحمه الله: لابد لكل مؤمن في سائر أحواله من ثلاثة أشياء أمر يمتثله ونهي يجتنبه وقدر يرضى به، فأقل حالة المؤمن لا يخلو فيها من أحد هذه الأشياء الثلاثة، فينبغي أن يلزم همها قلبه، ويحدث بها نفسه، ويؤاخذ الجوارح بها في سائر أحواله [(١)].

وقد شرح ابن تيمية كلام الشيخ عبد القادر واستحسنه بقوله: هذا كلام شريف جامع يحتاج إليه كل أحد، وهو تفصيل لما يحتاج إليه العبد، وهي مطابقة لقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيِصْبِرْ فَإِنَّ اللّهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٩٠]. ولقوله تعالى: ﴿ إِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لاَ يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا﴾ [آل عمران: ١٢٠]. ولقوله تعالى: ﴿إِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ﴾ [آل عمران: ١٨٦]، فإن التقوى تتضمن فعل المأمور وترك المحظور، والصبر يتضمن الصبر على المقدور، فالثلاثة ترجع إلى هذين الأصلين، والثلاثة في الحقيقة ترجع إلى امتثال الأمر وهو طاعة الله ورسوله وهو أن يفعل في ذلك الوقت ما أمر به وطاعة الله ورسوله هي عبادته التي خلق لها الجن والإنس، كما قال الله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦] وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ٢١]. والرسل كلهم أمروا قومهم أن يعبدوا الله ولا يشركوا به شيئاً، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلاَلَةُ فَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾[النحل: ٣٦].

---

(١) فتوح الغيب للجيلاني، المقالة الأولى ص ٦.

وقال تعالى: ﴿وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِن دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ﴾ [الزخرف: ٤٥] ثم مضى - رحمه الله - في توجيه كلام الشيخ عبد القادر الجيلاني وشرح مراده من تلك العبارات [١].

هذه هي أهم الأسس التي أوصى بها الشيخ عبد القادر أتباعه المنتسبين لطريقته [٢]. وقد أثنى ابن تيمية على الشيخ عبد القادر الجيلاني واعتبره من ضمن أئمته فقد قال:.. والذي نختار قول أئمتنا.. ومن متأخريهم الشيخ الإمام أبو محمد عبد القادر بن أبي صالح الجيلاني.

* * *

(١) فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية (١٠/٤٥٦). (٢) الشيخ عبد القادر الجيلاني ص ٦٤٣.

الفصل التاسع

الخطوط العريضة لدعوته الإصلاحية

- بدء الدعوة وأسلوبه في ذلك: يُرجع المؤرخون ظهور عبد القادر إلى عام ٥٢١هـ/ ١١٢٧م [١]. والواقع أن عبد القادر بدأ دعوته قبل ذلك، فهو يذكر أنه سبق جلوسه للوعظ فترة التهيؤ النفسي وتشجيع الأصحاب والمحبين، وأنه بدأ مجلسه بالرجلين والثلاثة ثم تزاحم الناس حتى صار مجلسه يضم سبعين ألفاً [٢]، ثم تزايد الإقبال حتى ضاقت المدرسة، فخرج إلى سور بغداد بجانب رباطه، وصار الناس يجيئون إليه ويتوب عنده الخلق الكثير [٣]، ومنذ ذلك الوقت بدأ عبد القادر دعوته والتي تميزت بأمور منها:

١- اعتماد التعليم المنظم والتربية الروحية المنظمة

كان الشيخ أبو سعيد المخرمي قد أسس مدرسة صغيرة في باب الأزج (حي من أحياء بغداد) فلما توفي آلت إلى تلميذه عبد القادر الجيلاني فعمد إلى توسيعها وإعادة بنائها، كما أضيف إليها عدد من المنازل والأمكنة التي حولها. ولقد بذل الأغنياء في عمارتها أموالهم، وعمل الفقراء فيها بأنفسهم [٤]. وروى لنا المؤرخون - أثناء ذلك - صوراً من البذل والتضحية يكشف عن مدى تعلق الأتباع بالشيخ، من ذلك امرأة فقيرة قررت المساهمة في عمارة المدرسة فلم تجد شيئاً، وكان زوجها من العمال فجاءت إلى الشيخ عبد القادر تصحب زوجها وقالت: هذا زوجي ولي عليه من المهر قدر عشرين ديناًرا ذهباً ولقد وهبت له النصف بشرط أن يعمل في مدرستك بالنصف الباقي، ثم سلمت الشيخ خط

(١) نشأة القادرية، د. ماجد الكيلاني ص ٧٩.

(٢) هكذا ظهر جيل صلاح الدين ص ١٨٦.

(٣) المنتظم (١٠/ ٢١٩).

(٤) المصدر نفسه (١٠/ ٢١٩)، طبقات الحنابلة (١/ ٢٩١).

الاتفاق الذي وقعته مع زوجها، فكان الشيخ يشغله في المدرسة يوماً بلا أجرة ويوماً بأجرة، لعلمه أنه فقير لا يملك شيئاً، فلما عمل بخمسة دنانير أخرج له الخط ودفعه له، وقال له: أنت في حِل من الباقي [1]. ولقد اكتمل بناء المدرسة عام ٥٢٨هـ/ ١١٣٣م، وصارت منسوبة إلى الشيخ عبد القادر حيث جعلها مركزاً لنشاطات عديدة منها التدريس والإفتاء والوعظ[2]. وأما تمويل المدرسة فقد أوقف الأتباع والأغنياء عليها أوقافاً دائمة للصرف على الأساتذة والطلاب[3]. ومنهم من أوقف الكتب لمكتبتها[4]، وكان لها خدم مهمتهم العناية بأمورها وخدمة الأساتذة والطلاب [5].

وكرّس الشيخ عبد القادر معظم أوقاته للمدرسة فكان لا يخرج منها إلا يوم الجمعة إلى المسجد أو الرباط، ولقد قام أسلوبه في التدريس والتربية على مراعاة استعدادات كل طالب والصبر عليه، وكان يعتز بمهنة التدريس هذه ويعتبرها «أشرف منقبة وأجل مرتبة». وأن العالم محبوب من أهل الأرض، وأنه سيُميَّزُ يوم القيامة عمن سواه ويعطي درجات أسمى من غيره [6]. لقد أمضى الشيخ عبد القادر في التدريس ثلاثاً وثلاثين سنة بدأها عام ٥٢٨هـ/ ١١٣٣م حتى وفاته عام ٥٦١هـ/ ١١١٦م [7] ، ولا تزال المدرسة باقية إلى اليوم[8]، ولها مكتبة فيها مخطوطات شهيرة وتعرف باسم المكتبة القادرية [9]. والواقع أن التحليل الدقيق للنظام التربوي الذي طبقه الشيخ عبد القادر، يكشف عن تأثر كبير

---

(١) طبقات الحنابلة (١/ ٢٩١)، هكذا ظهر جيل صلاح الدين ص ١٨٦.
(٢) هكذا ظهر جيل صلاح الدين ص ١٨٦.
(٣) شذرات الذهب نقلاً عن هكذا ظهر جيل صلاح الدين ص ١٨٦.
(٤) هكذا ظهر جيل صلاح الدين ص ١٨٦. (٥) المصدر نفسه ص ١٨٧.
(٦) سر الأسرار، لعبدالقادر الجيلاني نقلا عن هكذا ظهر جيل صلاح الدين ص ١٨٨.
(٧) قلائد الجواهر ص ٣٢، هكذا ظهر جيل صلاح الدين ص ١٨٨.
(٨) مدارس بغداد في العصر العباسي ص ١٥٤.
(٩) هكذا ظهر جيل صلاح الدين ص ١٨٨.

بالمنهاج الذي اقترحه الغزالي، فقد وضع الشيخ عبد القادر منهاجاً متكاملاً يستهدف إعداد الطلبة والمريدين علمياً وروحياً واجتماعياً ويؤهلهم لحمل رسالة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، كذلك توفر لهذا المنهاج فرص التطبيق العملي في الرباط المعروف باسم الشيخ عبد القادر حيث كانت تجري التطبيقات التربوية والدروس والممارسات الصوفية ويقيم الطلبة والمريدون [1]، وإليك تفاصيل البرنامج المذكور:

أ - الإعداد الديني والثقافي:

يتحدد هذا الإعداد بحسب عمر الطالب أو المريد وحاله، فإذا كان ممن يقصدون تصحيح العبادة كالكبار من الناس والعامة درس له الشيخ عقيدة أهل السنة وفقه العبادات اللذين تضمنهما كتابه «الغنية لطالبي طريق الحق» الذي صنّفه على طريقة كتاب «إحياء علوم الدين للغزالي» واقتفى الموضوعات نفسها التي عالجها الغزالي في كتابه المذكور. ويضاف إلى ذلك دراسات تستهدف إعداد النابه من الدارسين ليكون داعية بين الناس مثل أهمية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ووسائله وأساليبه، ودراسات في المذاهب الفكرية المعاصرة والفرق السائدة[2]، بالإضافة إلى التدريب على الوعظ والخطابة والتدريس[3]. وأما إذا كان الدارس طالباً من طلبة المدرسة، فإنه يتلقى إعداداً أوسع يتضمن حوالي ثلاثة عشر علماً تشمل التفسير والحديث والفقه الحنبلي، والخلاف والأصول والنحو والقراءات بالإضافة إلى ما سبق ذكره، على أنه كان يستبعد علم الكلام والفلسفة وينهى عن مطالعة كتبها السائدة [4]، وكان الجمع بين الفقه والتصوف السني شرطاً أساسياً للمريدين، فقد روى ابن تيمية - في مجلدي التصوف وعلم

---

(١) هكذا ظهر جيل صلاح الدين ص ١٨٩.

(٢) الغنية (١/ ٧١ - ٨٤).

(٣) هكذا ظهر جيل صلاح الدين ص ٤٣٥.

(٤) قلائد الجواهر ص ٣.

السلوك - من الفتاوى كيفية تقيد منهج عبدالقادر بالأصول الواردة في القرآن الكريم والسنة والتزامه تزكية النفس في منهاجه التربوي [1].

ب- الإعداد الروحي:

يستهدف الإعداد الروحي تربية إرادة المتعلم أو المريد حتى يصبح صفاء بلا كدر، ويصير مع النبي ﷺ في عقله ومشاعره ومعناه ويكون دليل قدوته [2].

ولكي يصل المتعلم إلى ذلك، عليه أن يلتزم السنة في كل شيء وأن يتصف بصفات أساسها المجاهدة والتحلي بأعمال أولي العزم، وقد بينت تلك الصفات عند حديثي عن موقفه من العلم والعمل. وكان يرافق الممارسات العملية التي دعا إليها الشيخ دراسات نظرية حول مقصود المجاهدات والعبادات التي يمارسها المريد في حياته اليومية، وبذلك أقام التزكية الروحية على قاعدة فكرية تستهدف إقناع المريد بما يمارسه، فكان هناك دراسات حوال الأوراد والأذكار [3]، ودراسات عن التقوى والورع، ودراسات عن أحوال النفس ومداخل الشيطان ودراسات عن الأخلاق التي يجب أن يكون المريد عليها. ويحتوي كتابا (الغنية) و(فتوح الغيب) فصولاً مطولة مما اعتمده الشيخ عبد القادر في ذلك [4].

ج- الإعداد الاجتماعي:

ويستهدف هذا الإعداد توثيق العلاقات بين الأفراد والجماعات والقضاء على أسباب التفكك الاجتماعي الذي ساد المجتمع في عصره، والميدان الذي كان يتم به هذا الإعداد هو المدرسة القادرية نفسها حيث يتدرب المريد على ما يجب أن يتحلى به الفرد خارج المدرسة في المجتمع الكبير. ويشمل هذا الإعداد

(١) الفتاوى، علم السلوك ج ١٠، كتاب التصوف ج ١١.
(٢) الفتح الرباني ص ٢٠٦، هكذا ظهر جيل صلاح الدين ص ١٩٠.
(٣) الغنية (٢/ ٨١-٨٦)، الفتح الرباني ص ٨٥.
(٤) هكذا ظهر جيل صلاح الدين ص ١٩٢.

تنظيم حياة المريد الخاصة؛ وعلاقات المريدين بالقيادة المتمثلة بالشيخ؛ وعلاقاتهم ببعضهم البعض؛ وعلاقاتهم بالمجتمع المحيط، أما عن حياة المريد الخاصة، فقد حدد المنهاج القادري آداباً تنظم دقائق السلوك اليومي للفرد كاللباس والنوم والدخول والخروج والزينة والجلوس والسير والطعام والشراب، ومعاملة الزوجة والأبناء والوالدين، والإقامة والسفر، وفي جميع هذه الآداب يسترشد بما ورد في السنة النبوية. كذلك حرص الشيخ عبد القادر أن يبتعد بالمريد عن كل ما ينزل من مكانته الاجتماعية كالبطالة والعيش على هبات المحسنين، وسؤال الناس، وحثه على الاشتغال بالكسب والتجارة مع مراعاة قواعد الأخلاق والأمانة [1].

وأما عن تنظيم علاقة المريد والطالب بالشيخ، فقد أوجب عبد القادر على المريد طاعة الشيخ في الظاهر والباطن وأن لا ينقطع عنه وأن يستشيره في جميع شؤونه، وفي المقابل أوجب على الشيخ أن يعامل مريديه بالحكمة والشفقة، وأن يؤدبهم ابتغاء مرضاة الله، وأن يكون لهم ملجأ وسنداً وراعياً، فإذا لم يكن في هذه المنزلة فليترك شيخه وليعد إلى شيخ يؤدبه [2].

وحدد القاعدة التي يعتمدها المريد في صحبة الأغنياء والفقراء بما يلي:

أن تصحب الأغنياء بالتعزز والفقراء بالتذلل... وعليك بصحبة الفقراء والتواضع وحسن الأدب والسخاء.. وعلى المريد أن يحذر من الضعف أمام عطاء الأغنياء، أو يطمع بنوالهم، لأن تملقهم من أخطر الأمور على دين المرء وعلى خلقه، شريطة أن لا يحقد عليهم، وأن يحسن الظن بهم وأن لا يتعالى عليهم [3].

---

(١) هكذا ظهر جيل صلاح الدين ص ١٩٣.　　(٢) المصدر نفسه ص ١٩٤.

(٣) الغنية (٢/١٢٨ - ١٥٤)، فتوح الغيب ص ٧٥ ، ١٦٧.

٢- الوعظ وموضوعاته:

بالرغم من اشتغال عبد القادر بالتدريس وإعداد المربين، فإنه لم ينقطع عن مجالس الوعظ العامة التي استهدفت إيصال دعوته إلى عامة الناس، فخصص لذلك ثلاثة أيام في الأسبوع: صباح الجمعة، ومساء الثلاثاء في المدرسة، وصباح الأحد في الرباط[1]. ويذكر التادفي أن الحضور كانوا يدونون هذه المواعظ حتى عُدَّ في مجلسه مقدار أربعمائة محبرة[2]. وقد جُمع قسم كبير من هذه المواعظ أو المجالس -كما كانت تسمى- في كتاب يُعرف باسم «الفتح الرباني» مع تحديد تواريخها وأمكنة إلقائها، كان الشيخ عبد القادر - في مواعظه - شديد الحماسة للإسلام مشفقاً لما آلت إليه تعاليمه في حياة الناس ويود لو استطاع استنفار الخلق جميعاً لنصرة الإسلام، يقول في أحد مجالسه: دين محمد ﷺ تتواقع حيطانه ويتناثر أساسه. هلموا يا أهل الأرض نُشيِّد ما تهدم ونقيم ما وقع، يا شمس ويا قمر، ويا نهار تعالوا[3]. ويقول في موعظة أخرى: سبحان من ألقى في قلبي نصح الخلق وجعله أكبر همي. إني ناصح ولا أريد على ذلك جزاء. آخرتي قد حصلت لي عند ربي عز وجل. ما أنا بطالب دنيا، ما أنا عبد الدنيا ولا الآخرة، ولا سوى الحق عز وجل. فرحي بفلاحكم وغمي لهلاككم، إذا رأيت وجه مريد صادق قد أفلح على يدي شبعت وارتويت واكتسيت وفرحت كيف خرج من تحت يدي[4]. ومن أقواله كذلك: الا إني راع لكم، ساق لكم، ناطور لكم، ما ترقيت ها هنا وأرى لكم وجود الضر والنفع بعد ما قطعت الكل بسيف التوحيد. ألزمت هذا المقام.. حمدكم وذمكم وإقبالكم وإدباركم عندي سواء. كم من يذمني كثيراً ثم يتقلب ذمه حمداً. كلاهما من الله لا منه، إقبالي عليكم

(١) هكذا ظهر جيل صلاح الدين ص ١٩٥.
(٢) قلائد الجواهر ص ١٨.
(٣) الفتح الرباني ص ٢٩٥.
(٤) هكذا ظهر جيل صلاح الدين ص ١٩٦.

لله، أخذي منكم لله، لو أمكنني دخلت مع كل منكم القبر وجاوبت عنه منكراً ونكير رحمة وشفقة عليكم[1]. بهذا الحماس، انطلق الشيخ عبد القادر يستنفر المسلمين إلى الالتفاف حول الإسلام، ويدعوهم إلى العودة إلى تعاليمه وحمل رسالته. وكان يرى أن صلاح دين الفرد لا يتم إلا بإصلاح القلب وفك إساره من حب الدنيا والأخلاق الذميمة ومن كل ما يشغل عن الله، ومن هنا كثرت في مواعظه دعوة الناس إليه للتربية والتزكية [2]، وكانت مواعظه وخطبه بعضها موجه لنقد العلماء والحكام، والدعوة لإنصاف الفقراء والعامة.

أ- انتقاد العلماء:

كان الغالبية من العلماء في عهده يتنافسون فيما بينهم على اعتلاء منابر الوعظ والخطابة في الأماكن المشهورة ويسعون في إيذاء بعضهم بعضاً عند الخليفة والوزراء والحكام، ومنهم من عرف بسوء الخلق، ومنهم من اشتغل بالخصومات المذهبية، شاهد الشيخ عبد القادر عن كثب كل ذلك وأمثاله، فشن حملة شديدة على هذا النوع من العلماء واعتبرهم تجاراً يتاجرون بالدين ويساهمون في ارتكاب المحظورات. ومن مواعظه العامة في ذلك قوله: يا سلاّبين الدنيا بطريق الآخرة من أيدي أربابها. يا جهالاً بالحق؛ أنتم أحق بالتوبة من هؤلاء العوام، أنتم أحق بالاعتراف بالذنوب من هؤلاء؛ لا خير عندكم [3] وقال في موعظة ألقاها في المدرسة في ٩ رجب ٥٤٦هـ/ ١١٥١م: لو كانت عندك ثمرة العلم وبركاته لما سعيت إلى أبواب السلاطين في حظوظ نفسك وشهواتها، العَالِم لا رجلين له يسعى بهما إلى أبواب الخلق، والزاهد لا يَدَيْن له يأخذ بهما أموال الناس، والمحب في الله لا عينين له ينظر بهما إلى غيره [4].

(١) (٢) الفتح الرباني نقلاً عن هكذا ظهر جيل صلاح الدين ص ١٩٧.
(٣) هكذا ظهر جيل صلاح الدين ص ١٩٨. (٤) المصدر نفسه ص ٢٠٢.

وحذّر عامة الجماهير من حضور مواعظهم والاستماع إلى أحاديثهم فقال: يا عباد الله... لا تسمعوا من هؤلاء الذين يُفرحون نفوسكم. يذلون للملوك ويصيرون بين أيديهم كالذر لا يأمرونهم بأمر ولا ينهونهم عن نهي. إن فعلوا ذلك فعلوه نفاقاً وتكلفاً، طهر الله الأرض منهم ومن كل منافق أو يتوب عليهم ويهديهم إلى بابه. إني أغار إذا سمعت واحداً يقول: الله الله وهو يرى غيره [1].

وهاجم المتعصبين للمذاهب ومن ذلك قوله: دع عنك الكلام فيما لا يعنيك. اترك التعصب في المذاهب واشتغل بشيء ينفعك في الدنيا والآخرة [2]. ولم تنقطع حملات عبد القادر على العلماء والفقهاء [3] المنحرفين عن هدى المصلحين والعلماء الربانيين وكان هجوم الشيخ عبد القادر على العلماء المنحرفين يريد به تصحيح الوضع السائد والمساهمة في تخريج جيل من العلماء الربانيين الذين يقومون بوعظ الناس وهدايتهم وتزكيتهم ونشر التعاليم الصحيحة في أوساط الأمة حتى يخرج جيل النصر المنشود الذي يتحقق على يديه وعد الله بالنصر للمؤمنين، وقد حالف الشيخ عبد القادر الكثير من النجاح بحمد الله في تحقيق هذه المهمة.

ب- انتقاد الحكام :

وخص الشيخ عبد القادر الحاكمين بانتقاداته وحذر الناس من الانصياع لهم بما يخالف الشريعة، يقول في أحد مجالسه:صارت الملوك لكثير من الخلق آلهة. قد صارت الدنيا والغنى والعافية والحول والقوة آلهة، ويحكم، جعلتم الفرع أصلاً، المرزوق رازقاً، والمملوك مالكاً، والفقير غنياً، والعاجز قويا، والميت

(١) الفتح الرباني ص ٢٤٥، هكذا ظهر جيل صلاح الدين ص ١٩٩.
(٢) هكذا ظهر جيل صلاح الدين ص ١٩٩.　　(٣) المصدر نفسه ص ٢٠١.

حياً.. إذا عظمت جبابرة الدنيا وفراعينها وملوكها وأغنياءها ونسيت الله عز وجل ولم تعظمه، فحكمك حكم من عبد الأصنام[1]، وانتقد الولاة والموظفين الذين يجتهدون في تنفيذ أوامر السلاطين دون تحرز: يقول في إحدى مواعظه: يا غلام:.. اخدم الحق عز وجل ولا تشتغل عنه بخدمة هؤلاء السلاطين الذين لا يضرون ولا ينفعون، أيش يعطونك؟ يعطونك مالم يقسم لك؟ أو يقدرون يقسمون لك شيئاً لم يقسمه الحق عز وجل؟ لا شيء مستأنف من عندهم، إن قلت إن عطاءهم مستأنف من عندهم كفرت [2].

ولم تتوقف انتقادات عبد القادر للحكام عند المواعظ العامة، وإنما تناولت المواقف الخاصة التي تبرز فيها الخرافات أو مظالم، ففي عام ٥٤١هـ/ ١١٤٦م ولى الخليفة المقتفي يحيى بن سعيد المعروف بابن المرجم القضاء. فمضى الأخير في ظلم الرعايا ومصادرة الأموال وأخذ الرشاوي، فكتبت ضده المنشورات والصقت في المساجد والشوارع دون أن يستطيع أحد أن يجهر بمعارضته. ويذكر سبط ابن الجوزي أن الشيخ عبد القادر اغتنم وجود الخليفة في المسجد وخاطبه من على المنبر قائلاً: وليت على المسلمين أظلم الظالمين وما جوابك غداً عند رب العالمين، فعزل الخليفة القاضي المذكور[3].

ولقد تكررت هذه المواقف مع الوزراء والرؤساء والحُجّاب، وتذكر المصادر التاريخية أن هؤلاء كانوا يستمعون لملاحظات عبد القادر لاعتقادهم بصلاحه وصدق أغراضه وكراماته[4]، فلقد حرص عبد القادر على أن يبقى

(١) المصدر نفسه ص ٢٠١.
(٢) هكذا ظهر جيل صلاح الدين ص ٢٠١.
(٣) مرآة الزمان (٨/ ٢٦٥)، هكذا ظهر جيل صلاح الدين ص ٢٠٢.
(٤) طبقات الحنابلة (١/ ٢٩٢).

بعيداً عن مواطن الشبهات أو التقرب للحكام، فقد ذكر عنه أنه ما ألم بباب حاكم قط وأنه تناوله يده [1].

ج - انتقاده للأخلاق الاجتماعية السلبية في عهده:

نظر الشيخ عبد القادر إلى المجتمع المعاصر له على أنه مجتمع الرياء والنفاق والظلم وكثرة الشبهة والحرام. وهذه صفات أحالت كل شيء فيه إلى مظاهر خاوية فيها ولا معنى[2]، يستوي في ذلك المتدينون وغيرهم.

يقول في إحدى مواعظه:هذا زمان الرياء والنفاق وأخذ الأموال بغير حق. قد كثر من يصلي ويصوم ويحج ويزكي، ويفعل أفعال الخير للخلق لا للخالق، فقد صار معظم الناس بلا خالق. كلكم موتى القلوب أحياء النفوس والأهوية طالبون للدنيا[3].

وقال في إحدى المواعظ:ملائكتكم تتعجب من وقاحتكم، تتعجب من كثرة كذبكم في أحوالكم، تتعجب من كذبكم في توحيدكم، كل حديثكم في الغلاء والرخص، وأحوال السلاطين والأغنياء. أكل فلان، واستغنى فلان، افتقر فلان.. كل هذا هوس ومقت وعقوبة، توبوا واتركوا ذنوبكم وارجعوا إلى ربكم دون غيره، اذكروه وانسوا غيره[4].

د - الدعوة لإنصاف الفقراء والعامة:

ركز الشيخ عبد القادر على نصرة الطبقة العامة والفقراء خاصة، فجعل الاهتمام بشؤونهم من شروط الإيمان، وشن حملة شديدة على الولاة الذين يظلمونهم وعلى الأغنياء الذين يخصون أنفسهم دون إخوانهم من الفقراء

(١) قلائد الجواهر ص ١٩-٣٠، هكذا ظهر جيل صلاح الدين ص ٢٠٣.
(٢) (٣) (٤) هكذا ظهر جيل صلاح الدين ص ٢٠٣.

«بأطيب الأطعمة وأحسن الكسوة وأطيب المنازل وأحسن الوجوه وكثرة الأموال» فأفتى بأن انتسابهم للإسلام دعوى كاذبة وذريعة لحقن دمائهم بالشهادتين [1]. ولقد جعل عدم التفرقة بين الغني والفقير من شروط تقدم المريد في مقامات التزكية، أو نجاة المسلم من عقاب الله[2]. وشدّد في وصيته المشهورة لولده عبد الرزاق على خدمة الفقراء وحسن صحبتهم والتعامل معهم: حسبك من الدنيا شيئان: صحبة فقير وحرمة ولي. وعليك يا ولدي أن تصحب الأغنياء بالتعزز والفقراء بالتذلل[3]. ولم يقف اهتمام الشيخ عبد القادر بالفقراء عند حد الوعظ، وإنما ترجمه لعمل واقع. فكان يفتح بابه للفقراء والغرباء ويقدم لهم المنام والغذاء ويحضرون الدرس ويعطيهم ما يحتاجون [4]. كان يرى هذا الأسلوب من أفضل الأعمال، فلقد نقل عنه قوله: فتشت الأعمال كلها فما وجدت فيها أفضل من إطعام الطعام، ولا أشرف من الخُلُق الحسن، أودُّ لو كانت الدنيا بيدي أطعمها الجائع، كفّي مثقوبة لا تضبط شيئاً، لو جاءني ألف دينار لم تبت عندي [5]. لهذا كله، أقبلت العامة والفقراء على عبد القادر إقبالاً شديداً وتحمسوا له [6]. وتاب على يديه أعداد كبيرة من أهل بغداد، فقد روي عنه قوله: وتاب على يدي من العيّارين والمسالحة أكثر من مائة ألف وهذا خير كثير[7].

٢-التصدي للتطرف الشيعي الباطني وللتيارات الفكرية المنحرفة

تعرض الشيخ عبد القادر الجيلاني لعقائد الفرق الإسلامية المختلفة، ويلاحظ على مناقشته لهذه الفرق أمران: الأول إنه لم يطمس أقوالها عن فرقة

(١) الفتح الرباني ص ٦٤ ، ٦٥، هكذا ظهر جيل صلاح الدين ص ٢٠٤.
(٢) المصدر نفسه ص ٥٢، هكذا ظهر جيل صلاح الدين ص ٢٠٥.
(٣) الفيوضات الربانية ص ٣٥ – ٣٧.
(٤) هكذا ظهر جيل صلاح الدين ص ٢٠٥.
(٥) المصدر نفسه ص ٢٠٥.
(٦) المنتظم (١٠/ ٢١٩).
(٧) قلائد الجواهر للتادفي ص ١٩ .

السنة التي ينتمي إليها، من ذلك قوله أن المعتزلة تسمى السنة مجبرة لقولها: أن جميع المخلوقات بمشيئة الله وقدرته وإرادته وخلقه، وأن المرجئة تسميها شكاكية لقول واحدهم: أنا مؤمن إن شاء الله تعالى. وكان يذكر أقوال الفرق المختلفة في السنة ثم يرد عليها ويحذر منها لأن السنة هم الفرقة الراشدة الناجية[1]. والثاني أن مناقشته لفرق المعتزلة [2]، والمرجئة والخوارج والقدرية والجهمية، وما انقسموا إليه من فروع تدل على إطلاع واسع على تاريخ هذه الفرق وعقائدها ومقارنتها بعقائد أهل السنة [3]... وناقش عقائد الشيعة ففصل في ذلك تفصيلاً واضحاً مستعرضاً تاريخ الشيعة وفرقهم، ثم ناقش عقائدهم سواء ما يتعلق بقضايا السياسة والمجتمع أو القضايا الاعتقادية الغيبية، وأصدر أحكاماً عليها من حيث الإسلام أو الكفر وهو في مناقشته لعقائد الشيعة حاول أن يتتبع أصولها فجعل لبعض هذه العقائد جذوراً يهودية من ذلك قوله: قالت اليهود لا تصلح الإمامة إلا لرجل من آل داود، وقالت الرافضة: لا تصلح الإمامة إلا لرجل من ولد علي بن أبي طالب، وقالت اليهود: لا جهاد في سبيل الله حتى يخرج المسيح الدجال وينزل بسبب من السماء، وقالت الروافض: لا جهاد في سبيل الله حتى يخرج المهدي وينادي مناد من السماء. وتؤخر اليهود صلاة المغرب حتى تشتبك النجوم وكذلك الروافض يؤخرونها... واليهود يبغضون جبريل عليه السلام ويقولون هو عدونا من الملائكة، ولذلك صنف من الروافض يقولون: غلط جبريل عليه السلام بالوحي إلى محمد ﷺ وإنما بعث إلى علي رضي الله عنه [4].

وأنكر على الشيعة قولهم بعدم إمامة الخلفاء الراشدين الثلاثة أبي بكر وعمر وعثمان[5]، وبين أن علياً رضي الله عنه بايعهم[6]، وكان الشيعة يقصدون مجالس

(1) الغنية (1/ 84)، نشأة القادرية ص 126.
(2) نشأة القادرية ص 126.
(3) نشأة القادرية ص 127.
(4) المصدر نفسه ص 128، الغنية (1/ 79).
(5) المصدر نفسه ص 128، الغنية (1/ 68).
(6) المصدر نفسه ص 128.

الشيخ عبد القادر وكان يناقشهم في عقائدهم[1]. ويظهر الدور الكبير الذي لعبته الحركة القادرية في مقاومة التشيع المتطرف - أو التيار الفاطمي - الباطني ومساهمتها الفعّالة في تقويض دولة الفاطميين العبيديين في مصر والتمهيد لدخول جيوش نور الدين محمود.

وكان دور الشيخ عبد القادر الجيلاني في التصدي للشيعة الرافضة الباطنية كبيراً، ولذلك كان موقف الشيعة الرافضة من الشيخ عبد القادر عنيفاً ومليئاً بالحقد والبغض على المستوى السياسي والفكري، فقد كانت مدرسة عبد القادر وضريحه وآثاره وأسرته أول الأهداف التي تعرضت للتنكيل في كل مرة يدخل فيها أمراء الشيعة الرافضة إلى بغداد، ففي عام ٩١٤هـ/ ١٥٠٨م احتل الشاه إسماعيل الصفوي بغداد، فخرب المدرسة ونكل بالأسرة الكيلانية تنكيلاً شديداً وفرقهم في البلاد[2]، حتى إذا فتح السلطان سليمان القانوني العثماني بغداد أعاد للمدرسة هيبتها القديمة وأمر باصلاحها.. وعمّر الرباط وعين لها أوقافاً كثيرة [3]، ثم توالت الإصلاحات والإضافات من قبل الولاة أمثال الوند زاده علي باشا وسنان [4] باشا، وفي أثناء الاحتلال الإيراني الثاني ١٠٣٣هـ / ١٦٢٣م قام صفي قولي بهدم مشهد الشيخ عبد القادر وخرب مدرسته ونكل بأسرته. وبقي الاحتلال حتى قيام مراد الرابع العثماني بفتح بغداد عام ١٠٤٨هـ / ١٦٣٨م وقيامه على تعمير المكان [5].

وأما موقف الكتاب الشيعة من الشيخ عبد القادر فيمثله مؤرخهم الكبير ومرجعهم في السير الخوانساري لترجمة الشيخ عبد القادر فقال: وضعته العامة العمياء في أرفع مكان، وفتحوا له في سوق التصنع والمخادعة للعوام دكاناً فوق

(١) القلائد للتادفي ص ٣٠ ، نشأة القادرية ص ١٢٨. (٦) نشأة القادرية ص ١٢٩.
(٣) المصدر نفسه ص ١٢٩.
(٤) العراق بين احتلالين للعزاوي (٤/ ١١٩). (٢) المصدر نفسه (٤/ ٢٣٤)، نشأة القادرية ص ١٢٩.

دكان، بل جعلوا مكمن جسده كصنم من الأصنام العظام، وأن الرجل عدل عن دائرة العدل، وغفل عن قاعدة الشرع إلى ما هنالك من السباب والشتائم، وأنكر كراماته وطعن في نسبه[1].

٤- إصلاح التصوف

أعطى الشيخ عبد القادر عناية خاصة لإصلاح التصوف، وإعادته إلى مفهوم «الزهد» ثم توظيفه لأداء دوره في خدمة الإسلام وإصلاح المجتمع، ولقد تمثلت جهوده في هذا الميدان:

أ - تنقية التصوف مما طرا عليه:

من انحرافات في الفكر والممارسة ثم رده إلى وظيفته الأصلية كمدرسة تربوية، هدفها الأساسي غرس معاني التجرد الخالص والزهد الصحيح. ويمثل كتاباه «الغنية لطالبي طريق الحق» و«فتوح الغيب» خلاصة أفكاره في هذا المجال. ولقد تناول الكتاب الثاني بالشرح ابن تيمية في الجزء العاشر من الفتاوى المسمى «كتاب السلوك» وقدمه نموذجاً للزهد الذي حث عليه القرآن الكريم والسنة الشريفة، ولم يكن عبد القادر في هذه المهمة يعتمد على البحث النظري أو الحديث والوعظ وإنما طبقه في ميدان التربية العملية في مدرسته ورباطه[2].

ب- الحملة على المتطرفين من الصوفية:

حمل عبد القادر في مواعظه وكتبه على من تلبسوا بالتصوف أو شوهوا معناه، لأن التصوف الصحيح صفاء وصدق لا يتحققان بتغيير الخرق، وتصفير الوجوه، وجمع الأكتاف، ولقلقة اللسان بحكايات الصالحين، وتحريك الأصابع بالتسبيح والتهليل، وإنما يجيء بالصدق في طلب الحق عز وجل، والزهد في

(١) روضات الجنان (٥/ ٨٥ - ٨٩)، نشأة القادرية ص ١٢٩.

(٢) هكذا ظهر جيل صلاح الدين ص ٢٠٩.　　　(٣) المصدر نفسه ص ٢٠٩.

الدنيا، وإخراج الخلق من القلب وتجردهما عمّا سوى مولاه عز وجل [1]، كذلك انتقد ما شاع بين بعض الصوفية من سماع الألحان والرقص وبدع لا تتفق مع الكتاب والسنة، وقرر أن المريد الصادق لا يهيّجه كلامٌ غير كلام الله وهو في غنى عن الأشعار والقيان والأصوات وصراخ المدعين، وشركاء الشياطين ركاب الأهوية، مطايا النفوس والطباع، أتباع كل ناعق وزاعق[2].

ج- محاولة التنسيق بين الفرق الصوفية وإيجاد التآلف بينها:

في الفترة الواقعة بين عامي ٥٤٦هـ - ٥٥٠هـ (١١٥١م - ١١٥٥م) جرت حركة تنسيق واتصالات بين الطرق الصوفية بهدف توحيد الجهود وتنظيم التعاون، ولتحقيق هذا الهدف عُقد عدد من الاجتماعات واللقاءات أدت إلى نتائج هامة على المستوى التنظيمي والمستوى النظري، وتصدر الشيخ عبد القادر الزعامة وكان أول الاجتماعات التي استهدفت توحيد القيادة عقد في رباط المدرسة القادرية الكائن في منطقة الحلة في بغداد، حيث حضر الاجتماع ما يزيد على الخمسين من شيوخ العراق وخارجه.

وكان الاجتماع الثاني - خلال موسم الحج- حيث حضره شيوخ الطرق الصوفية من مختلف أرجاء العالم الإسلامي، حضر هذا اللقاء الشيخ عبد القادر الجيلاني من العراق، والشيخ عثمان بن مرزوق القرشي الذي شاعت شهرته وانتهت إليه المشيخة في مصر، والشيخ أبو مدين المغربي الذي يعود إليه نشر الزهد في المغرب [3] في ذاك العصر) كذلك حضر الاجتماع شيوخ من اليمن حيث أرسل معهم الشيخ عبد القادر رسولاً ينظم أمورهم [4]. وفي نفس الفترة جرت اتصالات بين الشيخ عبد القادر والشيخ رسلان الدمشقي الذي انتهت

---

(٢) هكذا ظهر جيل صلاح الدين ص ٢٠٩.

(٣) طبقات الحنابلة (١/ ٣٠٦)، هكذا ظهر جيل صلاح الدين ص ٢٤٥.

(٤) (٤) هكذا ظهر جيل صلاح الدين ص ٢٤٥.

إليه تربية المريدين ورئاسة المشايخ في الشام[1]. ثم تلا ذلك اجتماع موسع، حضره جمع كبير من الشيوخ الذين يمثلون مدارس الإصلاح في مختلف أقطار العالم الإسلامي، واستطاع الشيخ عبد القادر الجيلاني أن ينقل التصوف السني إلى حركة منظمة في العراق وعلى مستوى العالم الإسلامي، ولقد ترتب على هذه اللقاءات المستمرة للمشايخ والعلماء آثار مهمة منها:

- وحدة العمل لدى مدارس الإسلام عامة، فقد أصبح للزعيم الشيخ عبد القادر اجتماعات متوالية مع كبار الشيوخ، يناقشون ما تحيله إليهم المدارس والأربطة في العالم الإسلامي من قضايا ومشكلات.

- إن المدارس والرباطات المختلفة أخذت ترسل إلى المدرسة القادرية النابهين من طلابها والمتقدمين من مريبها الذين ترى فيهم مؤهلات المشيخة في المستقبل، كما فعل الشيخ أبو مدين المغربي حين أرسل أحد مريديه - صالح بن ويرجات الزركالي - إلى بغداد حيث أكمل علوم الفقه وسلوك الزهد على يد الشيخ عبد القادر لإكمال سلوك الزهد وعلوم الإرادة [2].

- إن إحكام الربط بين تعليم الفقه وسلوك الزهد أدى إلى خفة - بل ربما اختفاء - معارضة الفقهاء وإلى التعاون بين الطرفين، بل صار الفقهاء يجمعون بين الفقه والزهد ويسمون ذلك تكامل الشريعة والطريقة. وهذا الأمر جعل ابن تيمية يعتبر عبد القادر وأقرانه من قادة مدارس الإصلاح نماذج فريدة في الجمع بين الفقه والزهد، فأطلق عليهم اصطلاح «الشيوخ الكبار المتأخرين» ونوّه في فتاويه بمزاياهم وتجردهم، واستقامتهم، ولذلك تم [3] الاتفاق على رؤية مشتركة للعمل والتعاون على تحقيق الأهداف المتفق عليها، وتقليل مساحة القضايا المختلف فيها مع وضع الخلاف في إطاره الطبيعي.

---

(٢) بهجة الأسرار ص ١٠٧، هكذا ظهر جيل صلاح الدين ص ٢٤٧.

(٣) هكذا ظهر جيل صلاح الدين ص ٢٤٧.

- خروج الزهد من عزلته التي كان فيها في حالة التصوف، وإسهامه في مواجهة التحديات التي تجابه العالم الإسلامي، فقد توثقت الصلات بين نور الدين زنكي في دمشق وبين شيوخ مدارس الإصلاح في بغداد وحران وجبال هكار ودمشق، ثم أعقب ذلك تداعي هذه المدارس للعمل مع نور الدين فصلاح الدين، واستمر هذا التعاون حيث أولى السلطانان عنايتهما الفائقة بمدارس الزهد ورباطاتها، وبَنَيا لها فروعاً جديدة وأوقفا عليها الأوقاف، وفي المقابل حملت هذه المدارس مسؤولياتها وأخذت دورها في التوجيه المعنوي للجهاد بطريقة فعّالة ناجحة [1].

٥- النهوض بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:

يرى الشيخ عبدالقادر أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ضرورة أساسية لبقاء المجتمع وسيادة الخير فيه، فإن تُرك تطرق الفساد إليه. وهو واجب على كل مسلم وكل حسب مستواه ودوره؛ فالسلاطين إنكارهم باليد، والعلماء إنكارهم باللسان، والعامة إنكارهم بالقلب [2]، والعلماء هم الفئة التي تقرر ما هو معروف مباح، وما هو منكر محرم، أما السلاطين، والعامة فعملهم تنفيذ ما يقرره العلماء في هذا المجال، وللعلماء الذين يتسنمون هذه المنزلة صفات تحددهم في العلماء السالكين طريق الزهد دون سواهم هذه الصفات هي:

- أن يكون القائم بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر عالماً.

- أن يكون عالماً بالمنكر الذي ينهى عنه على وجه قطعي لما في ذلك من خوف الوقوع في الظنون والإثم. فالواجب إنكار ما ظهر وعدم بحث ما ستر لأن الله نهى عن ذلك [3].

---

(١) هكذا ظهر جيل صلاح الدين ص ٢٤٧.

(٢) الغنية (١/ ٤٤، ٤٥).

(٣) هكذا ظهر جيل صلاح الدين ص ٢١٦.

- أن يكون قادراً على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على وجه لا يؤدي إلى فساد عظيم وضرر في نفسه وماله وأهله [1].

وحدد عبد القادر لأساليب الأمر بالمعروف شروطاً وهي كما يلي:

- أن يستعمل اللين والتودد، لا الفظاظة والغلظة. وعليه أن يتحلى بالشفقة على الخلق لوقوعهم في مصايد الشيطان.

- أن يكون صبوراً متواضعاً، زائل الهوى، قوي اليقين، حكيماً يعرف كيف يعالج الأمور.

- أن يأمر العاصي وينهاه في خلوة بما ذلك من إمكانية قبول النصيحة، فإن لم ينفع استعان عليه بأهل الخير، فإن لم ينفع فبأصحاب السلطان [2].

- عدم الخوض في مسائل الاختلاف أمام من يعتقدونها، فمثلاً في مذهب الحنابلة ينكرون اللعب بالشطرنج بينما يجيزه الشافعية، فالدخول في مثل هذه القضايا يثير تصلب المخالفين من المذاهب الأخرى ويفتح باباً للجدل والخصومة، فالحكمة هنا واجبة، وأدب العالم أولى من علمه [3].

٦- مدارس النواحي والأرياف والبوادي:

تعتبر مدرسة الشيخ عبد القادر الجيلاني في بغداد من المدارس المركزية في عاصمة الدولة العباسية في عهد نور الدين زنكي، ويعتبر الشيخ عبد القادر أحد رواد المدارس الإصلاحية التي أثرت في حركة النهوض ومقاومة الغزاة، إلا أن هناك مدارس متعددة أسهمت في دعم الدولة الزنكية والأيوبية ومن أهمها:

---

(١) هكذا ظهر جيل صلاح الدين ص ٢١٦.
(٢) (٣) نشأة القادرية ص ١٦٨.

أ- المدرسة العدوية:

أسس هذه المدرسة الشيخ عدى بن مسافر الذي أدرجه ابن تيمية في قائمة (كبار الشيوخ المتاخرين) واضاف أنه كان رجلاً صالحاً وله أتباع صالحون [1]، ونشأ عدي في قرية يقال لها: «بيت فار» في منطقة البقاع غربي دمشق، تتلمذ على الشيخ عقيل المنيحي ثم رحل إلى بغداد حيث صحب الشيخ حماد الدباس وغيره واجتمع هناك بالشيخ عبدالقادر الجيلاني وأبي الوفاء الحلواني، وأبي نجيب السهروردي، ثم ركز على خاصة نفسه، بأنواع المجاهدات والتهذيب زمناً طويلاً، ولذلك كان الشيخ عبد القادر يثنى عليه كثيراً ويقول: لو كانت النبوة تنال بالمجاهدة لنالها الشيخ عدي بن مسافر [2]. قضى الشيخ عدي زمناً في مجاهدة «خاصة نفسه» بالتزكية، ثم عاد للمجتمع واستقر في منطقة «جبال هكار» في شمال العراق بين قبائل الأكراد الهكارية، حيث بنى له مدرسة وأقبل عليه سكان تلك النواحي إقبالاً هائلاً، لما رأوا من زهده وصلاحه وإخلاصه في إرشاد الناس [3]، ويصف ابن خلكان أثر الشيخ عدي في مجتمع الأكراد الهكارية فيقول: سار ذكره في الآفاق، وتبعه خلق كثير، وجاوز حسن اعتقادهم فيه الحد [4]. ويذكر الذهبي أن من الآثار التي أحدثها الشيخ عدي بين الأكراد الهكارية انتشار الأمن في تلك المنطقة وارتداع مفسدي الأكراد وتوبتهم حتى صار لا يخاف أحد في تلك المنطقة الجبلية التي لم تكن آمنة قبل ذلك، وأنه انتفع به خلق كثير وانتشر ذكره.

لقد وصف الحافظ عبد القادر الرهاوي شخصية الشيخ عدي ومكانته فقال: ساح سنين كثيرة وصحب المشايخ، وجاهد أنواعاً من المجاهدات ثم سكن بعض جبال الموصل في موضع ليس به أنس، ثم أنس الله تلك المواضع به وعمّرها ببركاته

(١) فتاوى ابن تيمية، كتاب التصوف (١١/ ١٠٣).

(٢) النجوم الزاهرة (٥/ ٣٦٢).

(٣) (٤) وفيات الأعيان (٣/ ٢٥٤)، هكذا ظهر جيل صلاح الدين ص ٢٢٥.

حتى صار لا يخاف أحد بها بعد قطع السبل، وارتدع جماعة من مفسدي الأكراد ببركاته وعمّر حتى انتفع به خلق، وانتشر ذكره، وكان معلماً للخير، ناصحاً متشرعاً، شديداً في الله، لا تأخذه في الله لومة لائم، عاش قريباً من ثمانين سنة، مابلغنا أنه باع شيئاً ولا اشترى ولا تلبس بشيء من أمر الدنيا، كانت له غليلة يزرعها بالقدوم من الجبل ويحصدها ويتقوت، وكان يزرع القطن ويكتسي منه، ولايأكل من مال أحد شيئاً، وكانت له أوقات لا يُرى فيها محافظة على أوراده، وقد طفت معه أياماً في سواد الموصل، فكان يصلي معنا العشاء ثم لا نراه إلى الصبح.

ورأيته إذ أقبل إلى قرية يتلقاه أهلها من قبل أن يسمعوا كلامه تائبين رجالهم ونساؤهم إلا من شاء الله منهم، ولقد أتينا معه على دير رهبان فتلقانا منهم راهبان، فكشفا رأسيهما وقبّلا رجليه وقالا: ادع لنا فما نحن إلا في بركاتك وأخرجا طبقاً فيه خبز وعسل فأكل الجماعة. وخرجت إلى زيارة الشيخ أول مرة، فأخذ يجادلنا ويسأل الجماعة ويؤانسهم.. وكان يواصل الصوم الأيام الكثيرة على ما اشتهر عنه، حتى أن بعض الناس كان يعتقد أنه لا يأكل شيئاً قط، فلما بلغه ذلك أخذ شيئاً وأكله بحضرة الناس.

واشتهر عنه الرياضات والسير والكرامات والانتفاع به ما لو كان في القديم لكان أحدوثة. ورأيته قد جاء إلى الموصل فخرج إليه السلطان وأصحاب الولايات والمشايخ والعوام حتى آذوه ممن يقبّلون يده، فأجلس في موضع بينه وبين الناس شباك بحيث لا يصل إليه أحد إلا رؤية، فكانوا يسلمون عليه وينصرفون ثم رجع إلى زاويته [1]. قال عنه الذهبي: الشيخ الإمام الصالح القدوة، زاهد وقته [2]. وقد ظهرت الآثار العلمية والعملية لمدرسة عدي بن مسافر في الدور الكبير الذي لعبه أكراد جبل هكار - فيما بعد - في جيش

(١) سير أعلام النبلاء (٢٠/ ٣٤٣،٣٤٢).

(٢) سير أعلام النبلاء (٢٠/ ٣٤٢).

صلاح الدين حيث شكّلوا أهم فرقة، واحتل عدد منهم منزلة الأمراء والقادة الذين حققوا الانتصارات وأنجزوا الفتوح [1]. توفي الشيخ عدي بن مسافر في بلدة المكارية ودفن بها عام ٥٥٧هـ [2].

ب- مدرسة عثمان بن مرزوق القرشي:

أسس هذه المدرسة الشيخ عثمان في «مصر» وكان يُعد من أعيان المشايخ الذين جمعوا بين الشريعة والزهد. كان حنبلي المذهب، وكانت له علاقات مع الشيخ عبد القادر الجيلاني. لقد لعب - فيما بعد - دوراً مهمًا في تمهيد الأجواء لحملات نور الدين على مصر. استمر الشيخ عثمان في عمله بالقاهرة حتى وفاته عام ٥٦٤هـ عن عمر يناهز السبعين ودفن بجانب قبر الإمام الشافعي [3].

ج- مدرسة أبو مدين المغربي:

اشتهرت هذه المدرسة في «المغرب» وعرفت باسم الشيخ أبي مدين شعيب بن حسين الأندلسي الذي نشأ في منطقة أشبيلية في الأندلس، ودرس فيها على مذهب الإمام مالك بن أنس، ثم سلك طريق الزهد وجال في المغرب واستوطن مدة في مدينة (بجاية) إلى أن استقر به الطواف في مدينة «تلمسان»، وبدأ في الإرشاد والتدريس حيث تخرج على يديه الكثير من شيوخ المغرب وزهادها [4]، ويصف الذهبي الشيخ أبا مدين بأنه كان من أهل العمل والاجتهاد والانقطاع للعبادة والنسك والتربية [5]. كذلك اعتبره ابن تيمية من كبار الشيوخ المتأخرين الذين كانوا على طريقة صالحة ومنهج مستقيم [6]. واستمر أبو مدين مواظباً على التدريس والعبادة حتى وافاه الأجل حوالي

(١) هكذا ظهر جيل صلاح الدين ص ٢٥٦. (٢) قلائد الجواهر ص ٨٥ - ٩٠.
(٣) المصدر نفسه ص ١١٣ - ١١٤.
(٤) المصدر نفسه ص ١٠٨، ١٠٩، هكذا ظهر جيل صلاح الدين ص ٢٣٧.
(٥) سير أعلام النبلاء (٢١/ ٢١٩، ٢٢٠).
(٦) فتاوى ابن تيمية، كتاب التصوف (١١/ ٦٠٤).

عام ٥٩٠هـ وكان آخر كلامه: الله الحي، ثم فاضت نفسه [١].

د- مدرسة ابو السعود الحَريمي:

درس في المدرسة القادرية وتربّى على الشيخ عبد القادر وصار المشار إليه بعده، وصار له القبول التام عند الخاص والعام، وأسس مدرسة خاصة به ونجح نجاحاً قويًا بين جماهير الفقراء وفتح لهم بابه [٢].

هـ - مدرسة ابن مكارم النعال:

تنسب هذه المدرسة إلى محمود بن عثمان بن مكارم النعال البغدادي الذي كان يُشرف على رباط الوافدين من خارج بغداد والعراق إلى المدرسة القادرية ثم استقل بعد وفاة عبد القادر وصار يخرج بأصحابه لينكروا المنكر ويريقوا الخمور ويتعرضوا للأذى في سبيل ذلك [٣].

و - مدرسة عمر البزاز:

تنسب هذه المدرسة إلى عمر بن مسعود البزاز الذي وصف بأنه من أعيان أصحاب عبد القادر. شاع ذكره وأقبل عليه الأتباع، وتاب على يده خلق كثير من مماليك الخليفة، ويذكر ابن النجار أنه كان يحضر مجالسه [٤].

ز - مدرسة الجبائي:

أسسها عبدالله الجبائي الذي كان في الأصل مسيحياً من قرية«جبة» في جبل لبنان سُبي وهو فتى ثم نُقل إلى دمشق حيث أسلم هناك، فاشتراه علي بن إبراهيم بن نجا أحد أصحاب عبد القادر، فأعتقه ثم أرسله إلى بغداد عام ٥٤٠هـ/ ١١٤٥م حيث لازم الشيخ عبد القادر وصحب ابن قدامة في الدراسة،

---

(١) سير أعلام النبلاء (٢١/ ٢٢٠).

(٢) هكذا ظهر جيل صلاح الدين ص ٢٣٧.

(٣) هكذا ظهر جيل صلاح الدين ص ٢٣٧.

(٤) نشأة القادرية ص ١٩٤ - ٢١٢.

وتدل أخباره أن الشيخ عبد القادر كان يرعاه ويوده. نال الجبائي منزلة عالية في بغداد وظل يعمل مع الشيخ حتى وفاته، فرحل إلى أصبهان حيث درس وأفتى حتى وفاته عام ٦٠٥هـ/ ١٢٠٨م عن أربع وثمانين سنة[١].

ح - مدرسة الشيخ ماجد الكردي:

أسس هذه المدرسة ماجد الكردي في منطقة «قوسان» في العراق، وكان قد اشتهر أمره في تلك المنطقة وقصده المريدون والأتباع من مختلف أرجائها. وكان على علاقة وطيدة بالشيخ عبد القادر الذي كان يجله ويثني عليه، ولقد استمر في عمله حتى وفاته عام ٥٦٢هـ[٢].

ط - مدرسة حياة بن قيس الحراني:

الشيخ القدوة الزاهد العابد، شيخ حرّان، وزاهدها، حياة بن قيس ابن رَجّال بن سلطان الأنصاري الحراني، صاحب أحوال وكرامات وإخلاص وتعفف وانقباض، كانت الملوك يزورونه، ويتبرّكون بلقائه، وكان كلمة وفاق بين أهل بلده وقيل: إن السلطان نور الدين زاره، فقوى عزمه على جهاد الفرنج ودعا له، وإن السلطان صلاح الدين زاره وطلب منه الدعاء[٣]. وقد تخرج على يد الشيخ حياة الجم الغفير من الأتباع والمشايخ الذين استأنفوا منهجه في الدعوة والإصلاح، وانتمى إليه أعداد عظيمة من الناس وأشار إليه العلماء بالاحترام والتقدير. وكان أهل حران وما حوله يجلّونه ويقصدونه بالزيارة وطلب الدعاء للاستسقاء. لقد استمر في عمله حتى وفاته في حران نفسها عام ٥٨١هـ[٤].

---

(١) ذيل طبقات الحنابلة (٢/ ٤٥ - ٤٧).

(٢) قلائد الجواهر ص ١٠٧.

(٣) سير أعلام النبلاء (٢١/ ١٨١ - ١٨٢).

(٤) هكذا ظهر جيل صلاح الدين ص ٢٣٠.

وقد ذكر الدكتور ماجد عرسان الكيلاني مدارس أخرى كمدرسة الشيخ رسلان الجعبري، ومدرسة عقيل المنيحي، ومدرسة الشيخ علي بن الهيتي، ومدرسة الحسن بن مسلم، ومدرسة الجوسقي، ومدرسة الشيخ عبد الرحمن الطفسونجي، ومدرسة مولى الزولي، ومدرسة محمد بن عبد البصري، ومدرسة القيلوي، ومدرسة علي بن وهب الربيعي، ومدرسة الشيخ بقا بن بطو[1].

ومما يكمل الصورة للمدارس التي تناولها البحث في مدارس النواحي والأرياف والبوادي أن نقول إنها كانت تطبق منهاجاً موحداً في التربية والتدريس يتطابق إلى حد كبير إلى التعاليم والمبادئ التي دعا إليها الغزالي والجيلاني، وإنها كانت امتدادا أصغر في الأرياف والجبال والبوادي بحيث يمكن القول إنها بلغت المئات، لأن الأمر لم يتطلب أكثر من استقرار أحد الخريجين في مسجد من مساجد الريف مثلاً، أو الإقامة في رباط أو زاوية وتكريس الوقت للتدريس وسلوك الزهد[2].

٧-التعاون بين مدارس الإصلاح والدولة الزنكية:

تدل الأخبار المتعلقة بالمدارس الإصلاحية وخصوصاً مدرسة الشيخ عبد القادر أنها لعبت دوراً رئيسياً في إعداد جيل المواجهة للخطر الصليبي في البلاد الشامية[3]. وتدل الإشارات والشواهد التاريخية على أن الطلاب الشامين كانوا يشكلون مجموعة كبيرة بين الطلاب الذين يفدون من خارج العراق للدراسة في مدرسة الشيخ عبد القادر، كذلك كانت الشام منطقة جذب لرجالات الدين والمتحمسين لنصرة الإسلام وجهاد الأعداء، وتبدو مظاهر التعاون بين مدارس الإصلاح والدولة الزنكية في الآتي:

(١) هكذا ظهر جيل صلاح الدين ص ٢٢٤ - ٢٣٨.
(٢) المصدر نفسه ص ٢٣٨. (٣) المصدر نفسه ص ١٨٧.

أ- الإسهام في إعداد أبناء النازحين من مناطق الاحتلال الصليبي:

قامت المدرسة القادرية بدور مهم في إعداد أبناء النازحين من مناطق الاحتلال الصليبي، فكانت تستقدمهم وتوفر لهم الإقامة والتعليم، ثم تعيدهم إلى مناطق الثغور والمرابطة. ولقد كان هؤلاء الطلاب يعرفون «باسم المقادسة» نسبة إلى مدينة القدس أو بيت المقدس. وكان من بين هؤلاء الطلاب بعضهم الذي اشتهر فيما بعد في ميدان الفقه والسياسة، ويمكن القول إن إرسال هذه البعوث الطلابية إلى بغداد كان سببه أمرين: **الأول**:حاجة الدولة الزنكية إلى نمط معين من القيادات والموظفين والإداريين. **والثاني**:ما اشتهرت به مدرسة عبد القادر آنذاك من تجسيد لسياسات الإصلاح، ولابد أن إقرار إرسال هذه البعوث نتج عن دراسة ومشورة [1]، فقد توثقت الصلات بين الشيخ عبد القادر ونور الدين فكان نور الدين يرسل أبناء المقادسة النازحين من القدس إلى بغداد ليدرسوا في مدرسة الشيخ عبد القادر، ثم يعودوا إلى مناطق الثغور قادة ودعاة ومرشدين، كما كان نور الدين يستقدم مشاهير العلماء الذين تخرجوا من المدرسة القادرية[2].

وكانت المدرسة القادرية، والقيادة الزنكية تعد أبناء النازحين لقيادة حركة الجهاد بدل أن تأتي عليهم حياة التشرد والضياع، أو أن يجدوا طريقهم إلى المدارس العادية التي كانت تُعد الطلاب للوظائف والمصالح الشخصية. ويذكر سبط ابن الجوزي في كتابه «مرآة الزمان» أن والد موفق الدين بن قدامه حين نزح من بلاده إلى دمشق كان يقوم بنشاط دائب لحشد الطاقات في مواجهة الاحتلال الصليبي، وأن داره في دمشق كانت ملتقى القيادات الفكرية والسياسية، وأن نور

---

(١) هكذا ظهر جيل صلاح الدين ص ٢٧٥.

(٢) الشيخ عبد القادر الجيلاني الإمام الزاهد القدوة ص ٢٧٥.

الدين زنكي نفسه كان يداوم على حضور هذه اللقاءات[1].

ب- هجرة العلماء والعمل في المدارس النورية:

تداعى العلماء وخريجو المدارس الإصلاحية من كل قطر للعمل في المدارس التي أنشأها نور الدين وصلاح الدين. ومن ذلك ما قام به خريجو المدرسة القادرية حيث كان على رأس المهاجرين إلى هناك موسى بن الشيخ عبد القادر الذي قدم إلى دمشق واشتغل بالتدريس حتى وفاته عام ٦١٨هـ/ ١٢٢١م[2]. كذلك بنى نور الدين مدرسة في حرّان وأسلمها إلى أسعد بن المنجا بن بركات المتوفى (٦٠٦هـ/ ١٢٠٩م) والذي درس على الشيخ عبد القادر ثم عاد إلى الشام، كذلك أسند نور الدين إليه التدريس في المدرسة المسمارية، وأسند إليه القضاء[3]، ولقد استمرت ذريته تتناوب التدريس في مدرسته فيما بعد[4]، كذلك بنى نور الدين مدرسة أخرى في حرّان أسلمها إلى حامد بن محمود المتوفى عام ٥٧٠هـ/ ١١٧٤م الذي لازم الشيخ عبد القادر ودرس عليه، وكان نور الدين يقبل عليه وله فيه حسن ظن[5].

ج- المشاركة في الجيش والجهاد العسكري:

وأبرز المدارس التي رفدت هذا الميدان هي المدرسة العدوية وفروعها، التي أسسها الشيخ عدي بن مسافر في جبال هكار، فقد شكل خريجو هذه المدارس من الأكراد الهكارية والروادية جمهرة أمراء الجيش وقادة الفتح وجنوده، ويأتي على رأس هذه الجماعات أسرة صلاح الدين الأيوبي وهي من الأكراد

---

(١) مرآة الزمان (٨/ ٣١٤،٣١٣).

(٢) شذرات الذهب (٥/ ١٩٩)، هكذا ظهر جيل صلاح الدين ص ٢٧٦.

(٣) العبر(٥/ ١٧)، هكذا ظهر جيل صلاح الدين ص ٢٧٧.

(٤) الدارس في أخبار المدارس (٢/ ١١٥).

(٥) طبقات الحنابلة نقلاً عن هكذا ظهر جيل صلاح الدين ص ٢٧٧.

الروادية، وأصلهم من بلدة «دوين» من أعمال أذربيجان، والروادية قبيلة كبيرة. ولقد وُلد أيوب والد صلاح الدين في البلدة المذكورة ومنها خرج والده شاذي مع ولديه نجم الدين أيوب وأسد الدين شيركوه إلى بغداد، ومن هناك نزلوا تكريت حيث مات الوالد شاذي، وولد الحفيد صلاح الدين، ثم لم يلبث الأخوان أن رحلا والتحقا بخدمة عماد الدين زنكي[1]. وأما الأكراد الهكارية فقد شكّلوا فيما بعد أمراء جيش صلاح الدين وقادته ومن أشهرهم الأمير سيف الدين المشطوب الهكاري الذي لم يكن في أمراء الدولة أحد يضاهيه في المنزلة وكانوا يسمونه الأمير الكبير، توفي في القدس عام ٥٨٨هـ وقد وصف القاضي الفاضل موته بأنه: تهدم به بنيان قوم والدهر قاض ما عليه لوم [2]، ويأتي تفصيل ذلك عند حديثنا عن الدولة الأيوبية بإذن الله تعالى.

د- المشاركة في ميادين السياسة:

اشتغل نفر من تلاميذ المدرسة القادرية مع نور الدين ثم صلاح الدين في السياسة ولعب بعضهم أدواراً في غاية الخطورة، ومن الأمثلة على ذلك أسعد بن المنجا بن بركات فقد أشار ابن رجب إلى أنه بالإضافة إلى عمله في التدريس والقضاء كان له اتصال بالملوك وخدمة السلاطين[3]. وكذلك علي بن برداون بن زيد الكندي الذي حظي عند السلطان نور الدين [4]، ويشابههما حامد بن محمود الحراني الذي صحب عبد القادر ودرس عليه، وعندما انتهى من الدراسة ذهب إلى دمشق حيث اتصل بنور الدين فولاّه التدريس والقضاء والمظالم في حران. ويذكر ابن رجب أنه «رحل إلى بغداد ونزل بمدرسة الشيخ عبد القادر وجاء إلى دمشق في حوائج إلى نور الدين [5]، وكذلك زين الدين علي بن

(١) وفيات الأعيان (٧/ ١٣٩ - ١٤٣). (٢) هكذا ظهر جيل صلاح الدين ص ٢٧٩.
(٣) طبقات الحنابلة (٢/ ٤٩)، هكذا ظهر جيل صلاح الدين ص ٢٧٩.
(٤) (٥) هكذا ظهر جيل صلاح الدين ص ٢٨٠.

إبراهيم بن نجا الواعظ الأنصاري الدمشقي الذي وصف لقاءه بالشيخ عبد القادر فقال: فاشتغلت عليه بالعلم، ففتح الله عز وجل عليَّ في سنة بما لم يفتح على غيري في عشرين سنة وتكلمت ببغداد[1]. ولقد قدر لابن نجا هذا أن يكون من رجال صلاح الدين ومستشاريه وقد أرسله الشيخ عبد القادر الجيلاني للشيخ عثمان بن مرزوق القرشي قائد المعارضة السنية بمصر وشيخ المدرسة الإصلاحية في مصر، وقد قام ابن نجا بدور خطير ومهم في زحف جيش نور الدين إلى مصر انتهى بفتحها وتوحيدها مع الشام، فلو تتبعنا مسيرة ابن نجا هذا بعد أن استأذن عبد القادر بالرحيل إلى مصر لوجدناه يتوجه إلى دمشق، ويستقر بها مدة ليست قصيرة حيث اشتغل بالوعظ والتدريس، ثم وفد إلى بغداد عام ٥٦٤هـ/١١٦٨م رسولاً لنور الدين حيث خلع عليه الخليفة، وبعد ذلك مباشرة يدخل مصر ويتصل بالخلافة الفاطمية وينال الحظوة عند حكّام الدولة الفاطمية[2].

ويذكر ابن رجب أن ابن نجا الواعظ زار الشيخ عثمان بن مرزوق القرشي المتحمس لعبد القادر وسأله عن إمكانية قدوم أسد الدين شيركوه إلى مصر. فكان جواب الشيخ هو المشورة بالانتظار مدة وكل محاولة سريعة لابد أن تفشل، فجري الأمر كما ذكر [3].

وكان الشيخ عثمان يرأى أن يسبق غزو شيركوه لمصر مزيد من تهيئة الأجواء العامة لاستقباله بما يشيعه زعماء التصوف السني والوعاظ عن الخير الذي سيصحب قدومه، وأما عن خطوة ابن نجا في بلاط الفاطميين، فكانت من ضمن الخطة التي استهدفت اختراق البلاط الفاطمي لمعرفة مواطن الضعف والقوة عندهم، ودعم التعبئة الفكرية، التي كان يقودها أمثال الشيخ عثمان بن

---

(١) قلائد الجواهر ص ٣٣.

(٢) مرآة الزمان (٨/ ٥١٥)، هكذا ظهر جيل صلاح الدين ص ٢٨١.

(٣) طبقات الحنابلة (١/ ٣٠٨)، هكذا ظهر جيل صلاح الدين ص ٢٨١.

مرزوق، لأن ابن نجا قد قام بنفس الدور الاستطلاعي في مناسبة تالية [1]، وتبدو أهمية الدور الذي لعبه زين الدين بن نجا في كشفه لمؤامرة الفاطميين ضد صلاح الدين عام ٥٦٩هـ/ ١١٧٣م وسيأتي الحديث عنها بإذن الله عند بيان فقه نور الدين زنكي في إسقاط الدولة الفاطمية.

٨- صفاته ووفاته:

وصف موفق الدين بن قدامة المقدسي الشيخ عبد القادر فقال: كان الشيخ عبد القادر نحيف البدن، ربع القامة، عريض الصدر، عريض اللحية وطويلها، أسمر مقرون الحاجبين، أدعج العينين، ذا صوت جهوري وسمت وقدر [2]، وكان وافر النشاط دائم الحركة يرى في الشتاء وكأنه في الصيف يتصبب العرق من جسده [3]، وكان يلبس هيئة مخصوصة ويتطليس ويركب البغلة وترفع الغاشية بين يديه [4]. وقد أطنب المؤرخون الذين ترجموا لعبد القادر في وصف أخلاقه، فذكروا أن سكوته كان أكثر من كلامه، فإذا تكلم كان كلامه على الخواطر، وكان دائم البشر شديد الحياء، لين الجانب، وكانت له عناية بالفقراء والمساكين فقد كان يجالس الفقراء ويفلي لهم ثيابهم، ويقف مع الصغير ولكنه يحرص على أن لا يقوم لأحد من العظماء وأعيان الدولة، وكان لا يرد سائلاً، وكان يكرم جليسه بحيث لا يظن أن أحداً أكرم عليه منه، ويتفقد من غاب من أصحابه ويسأل عن شأنهم ويحفظ ودهم ويعفو عن سيئاتهم ويصدق من حلف له ويخفي علمه فيه، وكان يأمر كل ليلة بمد السماط ويأكل مع الأضياف والفقراء، وكان إذا أهديت له هدية فرقها أو بعضها على من حضر ويكافيء عليها مهديها [5]، مع أنه لم يكن

(١) هكذا ظهر جيل صلاح الدين ص ٢٨٢. (٢) مرآة الجنان لليافعي (٣/ ٣٥٢).
(٣) طبقات الحنابلة (١/ ٢٩٩).
(٤) عوارف المعارف ص ٣٥٦، نشأة القادرية ص ١٣١.
(٥) نشأة القادرية ص ١٣٢.

يخرج من مدرسته إلا للمسجد أو الرباط، فقد كان سريع الذهاب لمشاركة الناس أحزانهم، فلو راجعنا ماكتبه ابن الجوزي، وابن رجب، وسبط ابن الجوزي، وابن خلكان، والذهبي، وابن العماد الحنبلي لوجدنا الكثير من المتوفين المشهورين من العلماء وأرباب الخير يقال عن أحدهم «صلى عليه الشيخ عبد القادر»[1] وكان كثير الإقبال على الطاعة والخضوع إلى الله وكان كثير الذكر دائم الفكر سريع الدمعة[2]، وكان له حنطة مرباة من الحلال بيد بعض أصحابه من الرستاق يزرعها له كل سنة وكان بعض أصحابه يطحنها ويخبز له منها ويكون غذاؤه[3] منها، وكان لا يمس الذهب بيده فإذا جاء أحد بذهب قال له: ضعه تحت السجادة، فإذا جاء خادمه قال له: خذ ما تحت السجادة وأعطه الخباز والبقال.[4]

- وفاته:

أجمع المؤرخون على أن الشيخ عبدالقادر الجيلاني -رحمه الله- قد توفي عام ٥٦١هـ [5]، وقد عاش عبد القادر إحدى وتسعين سنة [6]، وقيل: إنه لم يمرض في حياته مرضاً شديداً سوى مرض موته الذي دام يوماً وليلة فقط [7]. وقد سأله ابنه عن مرضه فقال له: لا يسألني أحد عن شيء، أنا أتقلّب في علم الله عز وجل، إن مرضي لا يعلمه أحد، ولا يعقله أحد، وسأله ابنه الشيخ عبد الجبار: ماذا يؤلمك من جسمك؟ فقال رحمه الله: جميع أعضائي إلا قلبي فما به ألم وهو مع الله عز وجل. وكان يقول رحمه الله تعالى: أنا لا أخاف من أي إنسان، أنا لا أخاف من الموت، ولا من ملك الموت. وكان يرفع يديه ويمدهما وهو

(١) المنتظم (١٠/ ٨٥، ١٢٢)، نشأة القادرية ص ١٣٢.
(٢) طبقات الحنابلة (١/ ٢٩٢)، نشأة القادرية ص ١٣٣. (٣) نشأة القادرية ص ١٣٣.
(٤) بهجة الأبرار ص ١٠٤، نشأة القادرية ص ١٣٣. (٥) الشيخ عبد القادر الجيلاني ص ٢٦٥.
(٦) نشأة القادرية ص ١٣٣
(٧) الشيخ عبد القادر الجيلاني لعبد الرزاق الكيلاني ص ٢٦٥.

يقول: وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته. ثم أتاه الحق وسكرة الموت فجعل يردد: استعنت بلا إله إلا الله سبحانه من تعزَّز بالقدرة، وقهر عباده بالموت، لا إله إلا الله محمد رسول الله، وقد تعذر عليه التلفظ بكلمة: تعزز فظل يرددها حتى تلفظ بها، ثم أخذ يردد: الله، الله، الله، حتى خفي صوته ولسانه ملتصق بسقف حلقه، ثم خرجت روحه الكريمة، رحمه الله[1].

وقبل وفاته سأله ابنه عبد الوهاب الوصية فقال له: عليك بتقوى الله عز وجل وطاعته ولا تخف أحداً سوى الله، ولا ترج أحداً سوى الله، وكل الحوائج كلها إلى الله عز وجل، واطلبها جميعها منه، ولا تثق بأحد سوى الله عز وجل، ولا تعتمد إلا عليه سبحانه، وعليك بالتوحيد، جماع الأمر كله التوحيد. ثم قال: مروا بأخبار الصفات على ما جاءت، الحكم يتغير، والعلم لا يتغير، الحكم ينسخ والعلم لا ينسخ[2].

وقد تم دفنه ليلاً في مدرسته ولم يتمكن أهله وأصحابه من دفنه في النهار من كثرة الزحام، إذ خرج أهل بغداد وامتلأت الحلبة والأسواق والدروب، وقد ولد له تسع وأربعون ولدا، سبعة وعشرون ذكراً، والباقي إناث وتزوج أربع زوجات، وفيما يتعلق بزواجه قال الشيخ عبد القادر: كنت أريد الزوجة مدة من الزمان ولا أتجرأ على التزوج خوفاً من تكدير الوقت، فلما صبرت إلى أن بلغ الكتاب أجله ساق الله تعالى إليّ أربع زوجات، ما منهن إلا من تنفق على إرادة ورغبة[3].

ومن أقواله: الخلق حجابك عن نفسك، ونفسك حجابك عن ربّك[4].

---

(١) الشيخ عبد القادر الجيلاني لعبد الرزاق الكيلاني ص ٢٦٦.

(٢) الفتح الرباني ص ٣٧٣، فتوح الغيب ص ١٣٠.

(٣) قلائد الجواهر ص ٤١ أي أنهن بنات أغنياء أو يعرفن صنعة من الصناعات.

(٤) سير أعلام النبلاء (٢٠/ ٤٥٠).

وقال عنه الذهبي: ليس من كبار المشايخ من له أحوال وكرامات أكثر من الشيخ عبد القادر، لكن كثيراً منها لا يصح، وفي بعض ذلك أشياء مستحيلة [1].

وقال عنه ابن كثير: وانتفع به الناس انتفاعاً كثيراً، وله سمت حسن وصمت عن غير الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وفيه زهد كبير، وله أحوال ومكاشفات ولأتباعه وأصحابه فيه مقالات، ويذكرون عنه أقوالاً وأفعالاً ومكاشفات أكثرها مغالاة، وقد كان صالحاً ورعاً. وقد صنّف كتاب «الغنية» «وفتوح الغيب» وفيها أشياء حسنة ولكن ذكر فيهما أحاديث كثيرة ضعيفة وموضوعة، وبالجملة كان من سادات المشايخ الكبار، قدّس الله روحه ونور ضريحه [2].

***

(١) المصدر نفسه (٢/ ٤٥٠).

(٢) البداية والنهاية (١٦/ ٤٢٠).

الخلاصـــة

١- من الملاحظات المهمة في دراستي لفترة الحروب الصليبية أن انتصارات نور الدين وصلاح الدين أسهمت فيها عوامل متعددة منها على مستوى الخلافة نفسها ومنها على المستوى الشعبي، فقد أخذت مؤسسة الخلافة تسترجع صلاحياتها وتقوى على ما كانت عليه في العهد السلجوقي، وكذلك مؤسسة الوزارة العباسية خصوصاً في عهد يحيى بن هبيرة، كما كان لعبد القادر الجيلاني جهود معتبرة في الدعوة الشعبية والإصلاح العام، فقد كانت حركته الشعبية معاصرة لعماد الدين ونور الدين وتعتبر حركة عبد القادر الجيلاني من الروافد المهمة في حركة الجهاد والمقاومة التي قادها نور الدين وخصوصاً في القطاع الشعبي العريض وفي عاصمة الخلافة العباسية بغداد، فقد استطاع التأثير في المجتمع بدعوته ومواعظه وتزكيته.

٢- استفاد عبد القادر الجيلاني من جهود وتراث الغزالي وحول تلك التعاليم إلى مناهج مبسطة يفهمها العامّة وطلاب العلم والعلماء، فقد وضع الشيخ عبد القادر منهجاً متكاملاً يهدف إلى إعداد الطلبة والمريدين علمياً وروحياً واجتماعياً، ويؤهلهم لحمل رسالة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وقد توافر لهذا المنهاج فرص التطبيق العملي في الرباط المعروف باسم الشيخ عبد القادر حيث كانت تجري التطبيقات التربوية والدروس والممارسات العملية ويقيم الطلبة المريدون.

٣- بيّن الشيخ عبد القادر الجيلاني عقيدته بوضوح وكان كثيراً ما يردد في مجالس وعظه وحلقات دروسه عبارة: اعتقادنا اعتقاد السلف الصالح والصحابة، وكان يعرض العقيدة بأسلوب بليغ سهل العبارة.

٤- تنتسب الطريقة القادرية إلى الشيخ عبد القادر الجيلاني الذي يعتبر المؤسس الأول لها خصوصاً بشكلها الجماعي والمنظم القائم على جميع المريدين وربطهم بمشايخ الطريقة لتأديبهم وتربيتهم حيث كان التصوف في السابق يقوم على أساس فردي لا أثر للتجمع فيه، ولم يظهر في شكل منظم تحت طريقه واحدة إلا في عهد الشيخ عبدالقادر الجيلاني والمتتبع لظهور الطرق الأخرى يرى أنها جميعها إنما ظهرت، بعد الشيخ عبد القادر الجيلاني.

٥- أكد الشيخ عبد القادر في وصاياه وتوجيهاته، على أهمية التمسك بالكتاب والسنة، والتركيز على الاهتمام بالجوانب العملية والابتعاد عن الأفكار والفلسفات السائدة في عصره، وتأكيده على وجوب تعظيم أوامر الله سبحانه وامتثالها.

٦- اعتمد الشيخ عبد القادر في حركته الإصلاحية التعليم المنظم والتربية الروحية المنظمة، واهتم بالإعداد الديني، والثقافي، والروحي، والاجتماعي، وركز على الوعظ وانتقد علماء السوء، والحكام الظلمة، وانتقد في وعظه ومجالسه الأخلاق الاجتماعية السلبية، ودعا إلى إنصاف الفقراء والعامة، وتصدى للتطرف الشيعي الرافضي وللتيارات الفكرية المنحرفة، وبذل جهداً في إصلاح التصوف وإعادته إلى مفهوم الزهد وتنقيته مما طرأ عليه، وقام بحركة واسعة للتنسيق بين الطرق الصوفية بهدف توحيد الجهود وتنظيم التعاون، ونجح إلى حد كبير. وعُقد أول الاجتماعات التي استهدفت توحيد القيادة في رباط المدرسة القادرية الكائن في منطقة الحلة في بغداد حيث حضر الاجتماع ما يزيد على الخمسين من شيوخ العراق وخارجه، وكان الاجتماع الثاني في موسم الحج حيث حضره شيوخ الطرق الصوفية من مختلف أرجاء العالم الإسلامي، حضر هذا اللقاء الشيخ

عبد القادر الجيلاني من العراق، والشيخ عثمان بن مرزوق القرشي الذي شاعت شهرته وانتهت إليه المشيخة في مصر، والشيخ أبو مدين المغربي الذي يعود إليه نشر الزهد في المغرب في ذلك العصر، كذلك حضر الاجتماع شيوخ من اليمن حيث أرسل معهم الشيخ عبد القادر رسولاً ينظم أمورهم. وفي نفس الوقت جرت اتصالات بين الشيخ عبد القادر والشيخ أرسلان الدمشقي الذي انتهت إليه تربية المريدين ورئاسة المشايخ في الشام، ثم تلا ذلك اجتماع موسع حضره جمع كبير من الشيوخ يمثلون مدارس الإصلاح في مختلف أقطار العالم الإسلامي، واستطاع الشيخ عبد القادر الجيلاني أن ينقل التصوف السني إلى حركة منظمة في العراق وعلى مستوى العالم الإسلامي، ولقد ترتب على هذه اللقاءات المستمرة للمشايخ والعلماء آثار مهمة أسهمت في نهضة الأمة وتوسيع جبهة المقاومة ضد الصليبيين.

٧- تدل الأخبار المتعلقة بالمدارس الإصلاحية وخصوصاً مدرسة الشيخ عبد القادر أنها لعبت دوراً رئيسياً في إعداد جيل المواجهة للخطر الصليبي في البلاد الشامية، وتدل الشواهد التاريخية على أن الطلاب الشاميين كانوا يشكلون مجموعة كبيرة بين الطلاب الذين يفدون من خارج العراق للدراسة في مدرسة عبد القادر، وقد قامت المدرسة القادرية بدور مهم في إعداد أبناء النازحين من مناطق الاحتلال الصليبي، فكانت تستقدمهم وتوفر لهم الإقامة والتعليم، ثم تعيدهم إلى مناطق الثغور والمرابطة، ولقد كان هؤلاء الطلاب يعرفون باسم المقادسة، نسبة إلى مدينة القدس أو بيت المقدس، ويمكن القول إن إرسال هذه البعوث الطلابية إلى بغداد كان سببه أمرين: الأول: حاجة الدولة الزنكية إلى نمط معين من القيادات والموظفين

والإداريين. والثاني: ما اشتهرت به مدرسة عبد القادر آنذاك من تجسيد لسياسات الإصلاح، ولابد أن إقرار إرسال هذه البعوث نتج عن دراسة ومشورة، فقد توثقت الصلات بين الشيخ عبد القادر ونور الدين، فكان نور الدين يرسل أبناء المقادسة النازحين من القدس إلى بغداد ليدرسوا في مدرسة الشيخ عبد القادر ثم يعودوا إلى مناطق الثغور قادة ودعاة ومرشدين، كما كان نور الدين يستقدم مشاهير العلماء الذين تخرجوا من المدرسة القادرية، وهاجر بعض العلماء الذين تخرجوا من المدرسة القادرية إلى دولة نور الدين زنكي وشاركوا في الجهاد العسكري، وميادين السياسة، ومن أشهر هؤلاء زين الدين علي بن إبراهيم بن نجا الواعظ الإنصاري الدمشقي الذي أصبح فيما بعد من رجال صلاح الدين وكبار مستشاريه.

٨- عاصر نور الدين محمود انتعاش مؤسسة الخلافة العباسية إبان المقتفي لأمر ٥٣٠هـ - ٥٥٥هـ والمستنجد بالله ٥٥٥هـ - ٥٦٦هـ والمستضيء بالله ٥٦٦-٥٧٥هـ وقد اتسم حكمهم بالحرص الشديد على استعادة التوازن السياسي مع السلاجقة في العراق وإيران على نحو خاص، ومن بعد ذلك جميع البقاع الإسلامية الأخرى، وقد ساعد على تمتع الخلافة العباسية بالنفوذ في هذه المرحلة وجود الوزير الصالح العالم الرباني عون الدين بن هبيرة، وتعتبر قوة مؤسسة الخلافة وانتزاع صلاحياتها من السلاجقة في هذه الفترة من أسباب النهوض. وقد أسهمت مؤسسة الخلافة في دعم نور الدين محمود وحركة المقاومة للغزو الصليبي دينياً، واقتصادياً، وسياسياً.. إلخ متوازيًا ذلك الدعم مع الضخ الكبير لمعاني الإسلام والإيمان والإحسان في قطاعات جماهير الأمة في عاصمة الدولة العباسية وغيرها. وكان من أبرز قيادات الحركة الشعبية الروحية الإيمانية الشيخ عبد القادر

الجيلاني، لقد كانت عوامل النهوض عديدة منها، روح جديدة في مؤسسة الخلافة والوزارة، وقيادة رشيدة في ساحات الوغى، وزعامة شعبية روحية مخلصة لدين الله أسهمت في تقوية المقاومة للصليبيين وأمدت الأمة بقدرات مادية ومعنوية للتصدي للغزاة، وتحقيق التوازن العسكري ثم التفوق عليهم وفق رؤية نهضوية متكاملة وضع خطوطها العريضة القادة السياسيون، والعسكريون والعلماء الربانيون.

وآخر دعوانا ان الحمد لله رب العالمين



أهم المصادر والمراجع

١ـ البداية والنهاية، للحافظ عماد الدين أبي الفداء إسماعيل ابن عمر بن كثير القرشي الدمشقي، تحقيق د. عبد الله بن عبد المحسن التركي، دار هجر، مصر، الطبعة الأولى ١٤١٩هـ - ١٩٩٨م.

٢ـ التعريفات للجرجاني، علي بن محمد الشريف، بيروت، مكتبة لبنان.

٣ـ تفسير القرآن العظيم- للحافظ عماد الدين أبي الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير، الدمشقي، دار الفكر ، ودار القلم، بيروت، لبنان.

٤ـ الدارس في تاريخ المدارس، عبد القادر بن محمد بن عمر بن محمد الدمشقي، نشر وتحقيق جعفر الحسين - مطبعة الترقي ١٣٦٧هـ/ ١٩٤٨م.

٥ـ ذيل طبقة الحنابلة، لأبي الفرج عبدالرحمن بن شهاب الدين أحمد بن رجب، صححه محمد حامد الفقي، مطبعة السنة المحمدية، القاهرة، ١٩٥٢م.

٦ـ رجال الفكر والدعوة، لأبي الحسن الندوي، دار ابن كثير، دمشق، سوريا.

٧ـ روضات الجنان، للخوانساري محمد بن جعفر، تحقيق أسد الله إسماعيليان، طهران ١٣٩٢هـ.

٨ـ زاد المعاد في هدي خير العباد، ابن القيم، تحقيق شعيب وعبد القادر الأرناؤوط، الطبعة الثانية، مؤسسة الرسالة بيروت ١٤٠٢هـ.

٩ـ السنة لعبد الله بن أحمد بن حنبل الشيباني.

١٠ـ سنن الترمذي (الجامع الصحيح)، تأليف: محمد بن عيسى بن سورة الترمذي، تحقيق الشيخ أحمد محمد شاكر - مطبعة مصطفى البابي الحلبي - الطبعة الأولى ١٣٥٦هـ.

١١ـ سير أعلام النبلاء، شمس الدين محمد أحمد الذهبي، تحقيق: شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، الطبعة الثانية ١٤٠٢هـ / ١٩٨٢م.

١٢ـ شذرات الذهب في أخبار من ذهب، ابن العماد الحنبلي، دار الآفاق الجديدة.

١٣- الشيخ عبد القادر الجيلاني الإمام الزاهد القدوة، الدكتور عبد الرزاق الكيلاني.
١٤- الشيخ عبد القادر الجيلاني سعيد القحطاني، الطبعة الأولى ١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م.
١٥- صحيح البخاري، لأبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري، دار الفكر، الطبعة الأولى ١٤١١هـ - ١٩٩١م.
١٦- صحيح مسلم، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي بيروت، لبنان الطبعة الثانية ١٩٩٢م.
١٧- الطريق إلى بيت المقدس، د. جمال عبدالهادي، د.وفاء محمد رفعت، دار التوزيع والنشر الإسلامية طبعة ثانية ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م.
١٨- العراق بين احتلالين، عباس العزاوي، بغداد، ١٣٦٩ - ١٩٤٩م.
١٩- الغنية لطالبي الحق، عبد القادر الجيلاني، دار الألباب دمشق.
٢٠- فتاوى ابن تيمية، جمع عبد الرحمن بن قاسم، طبعة الرئاسة العامة للحرمين الشريفين.
٢١- قلائد الجواهر في مناقب عبد القادر للتادفي، الطبعة الثالثة، القاهرة ١٣٧٥ - ١٩٥٦م.
٢٢- لا طريق غير الجهاد لتحرير المسجد الأقصى، د. مجاهد بن مجد الدين بن صلاح الدين، الطبعة الأولى ١٤١٤هـ/ ١٩٩٤م.
٢٣- مدارج السالكين لابن القيم الجوزية.
٢٤- مرآة الزمان في تاريخ الأعيان، سبط ابن الجوزي، حيدرآباد الدكن ١٩٥١م.
٢٥- مسائل الإمام أحمد لابن هاني، تحقيق الشاويش.
٢٦- المنتظم لأبي الفرج عبد الرحمن علي بن محمد بن الجوزي دراسة وتحقيق محمد عبد القادر عطا ومصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية بيروت - لبنان.
٢٧- النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة، ابن تغري بردي جمال الدين أبو المحاسن يوسف.

٢٨- نشأة القادرية، د. ماجد الكيلاني، رسالة مقدمة إلى دائرة التاريخ في الجامعة الأمريكية ببروت لاتمام المطلوب للحصول على درجة أستاذ في الآداب.

٢٩- هكذا ظهر جيل صلاح الدين وهكذا عادت القدس، د.ماجد عرسان، دار القلم، الإمارات العربية الطبعة الثالثة١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م.

٣٠- وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، لابن خلكان أبو العباس شمس الدين أحمد، تحقيق إحسان عباس، دار صادر بيروت.



فهرس الكتاب

مؤلفات الدكتور علي محمد الصلابي











































